ماجد سليمان
Majed suleiman

رسالة الرَّجَّاس اليمامي

إلى هَوْذَة بن علي بن ثمامة الحنفي
ملك اليمامة في نجد الملقَّب بذي التَّاج

Letters

ماجد سليمان

رسالة الرَّجَّاس اليمامي

إلى هَوْذَة بن علي بن ثمامة الحنفي
ملك اليمامة في نجد الملقَّب بذي التَّاج

ماجد سليمان أديب سعودي، تَنوّع أدبه بين الشعر والقصة والرواية والمسرحية. كُتب حول أعماله عدد من الأطروحات العلمية والدراسات النقدية في جامعات محلية وعربية وعالمية، وتُرجمت بعض نصوصه إلى لغات منها البوسنية والأوردية.

صدر له:

شعراء من عائلتي مُنتخبات ٢٠٠٢م. **صهيل القوافي** مُنتخبات ٢٠٠٣م. **نزف الشعراء** مُنتخبات ٢٠٠٤م. **ملاذ أخضر** أشعار ٢٠٠٨م. **عينٌ حمئة** رواية ٢٠١١م. **دمٌ يترقرق بين العمائم واللحى** رواية ٢٠١٣م. **نجمٌ نابضٌ في التراب** قصص ٢٠١٣م. **طيور العتمة** رواية ٢٠١٤م. **قبّعةٌ تطير في الرّيح** قصائد ونثائر ٢٠١٤م. **الآباء** مسرحية للأطفال ٢٠١٤م. **الصندوق** قصة للأطفال ٢٠١٤م. **أجراس** قصيدة للأطفال ٢٠١٤م. **23 أبريل** مقالات ٢٠١٥م. **وليمةٌ لذئاب شَرِهة** مسرحية ٢٠١٦م. **شرق الأرض غرب البحر** مسرحية ٢٠١٨م. **ما رَوَته كاميليا** قصص ٢٠١٩م. **ليلُ القبيلة الظّاعنة** ملحمة ٢٠١٩م. **نسوة السوق العتيق** رواية ٢٠٢٠م. **رأس بين مطرقتين** مسرحية ٢٠٢٢م. **خان جليلة** رواية ٢٠٢٣م. **منامات نوح عبدالرحيم وأحواله** قصص ٢٠٢٤م.

نشاطاته:

أشرف على إعداد ملف التراث في **مجلة وُجوه الكويتية** عام ٢٠٠٨م. ساهم في إعداد **مجلة الفنون السعودية** ٢٠١٢م. اختيرت روايته **عين حمئة** في القائمة الطويلة من **جائزة الأمير سعود بن عبدالمحسن** للرواية ٢٠١٢م. اختير عام ٢٠١٣م للمشاركة في **مؤتمر الأدباء السعوديين** المنعقد في المدينة المنورة. اختير عام ٢٠١٣م لإقامة ندوة بعنوان **تجربتي في الكتابة** في نادي الرياض الأدبي. اختير عام ٢٠١٤م للمشاركة في ورشة إبداع ندوة التي تنظمها **الجائزة العالمية للرواية العربية** سنوياً للكتّاب المتميزين في أبو ظبي. اختير عام ٢٠١٥م ضيفاً في معرض أبو ظبي الدولي للكتاب. اختير عام ٢٠١٦م عضواً في لجنة تحكيم **جائزة اتصالات لكتاب الطفل** في نسختها الثامنة في الشارقة. اختير عام ٢٠١٧م لإقامة ندوة بعنوان **تجربتي في الكتابة** في جامعة الملك سعود في الرياض. اختير عام ٢٠٢٠م عضواً في لجنة تحكيم مسابقة **لمَّتنا سعودية** التي انطلقت بحملة مجلتي سيدتي والرجل بمناسبة اليوم الوطني السعودي الـ ٩٠. اختيرت إحدى قصصه القصيرة ضمن كتاب "**أصوات معاصرة**" لطلاب المستوى المتقدم **بجامعة جورجتاون الأميركية** ٢٠٢٣م. اختير للمشاركة في عدة أمسيات شعرية وقصصية.

بحوث ودراسات حول بعض أعماله:

بنية النص وتجليات الهدر الإنساني في رواية طيور العتمة، لحسن أحمامة، المغرب ٢٠١٦م. **القضايا الاجتماعية والسياسية في أعمال الأديب السعودي: ماجد سليمان**، محمد مجاهد، الهند ٢٠١٧م. **تداخل العتبات النصيّة مع البنية الروائية "ماجد سليمان أنموذجاً"**، دلال المالكي، السعودية ٢٠١٩م. **دلالة المكان بين الانفتاح والانغلاق في رواية طيور العتمة لماجد سليمان**، توينخ فاطمة، الجزائر ٢٠٢١م. **جماليات القُبح في رواية طيور العتمة لماجد سليمان**، البندري المطيري، السعودية ٢٠٢٣م. **الزمن في القصة السعودية القصيرة "ماجد سليمان نموذجاً"**، عفراء الحربي، السعودية ٢٠٢٢م. **الأنساق الثقافية في المسرح السعودي المعاصر مسرحية وليمة لذئاب شرهة لماجد سليمان نموذجاً**، أحمد الزهراني، السعودية ٢٠٢٣م.

ماجد سليمان
Majed Suleiman

رسالة الرَّجَّاس اليمامي

إلى هَوْذَة بن علي بن ثمامة الحنفي
ملك اليمامة في نجد الملقَّب بذي التَّاج

Letters

رسالة الرَّجَّـاس اليمامي

ماجد سليمان (السعودية)

Majed suleiman

تصنيف الكتاب: أدب الرسـائـل

Letters

عدد الصفحات: ٨٠

القياس: ١٤ × ٢١ سم

تصميم الغلاف والإشراف الفني: ماجد سليمان

الناشر: نشر ذاتي

تاريخ الإصدار: ٢٠٢٥م

لغة الكتاب: العربية

ⓒماجد سليمان العضياني ، ١٤٤٧هـ

العضياني ، ماجد سليمان
رسالة الرجاس اليمامي إلى هوذة بن علي بن ثمامة الحنفي ملك اليمامة في نجد الملقب بذي التاج. / العضياني ، ماجد سليمان .- الخرج ، ١٤٤٧هـ

جميع الحقوق محفوظة

رقم الإيداع ١٤٩٤ / ١٤٤٧

ردمك ١ ـ ٩٧٧٤ ـ ٠٥ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

عنوان الكاتب

majedsuleimann@gmail.com

إلى

الغائب الحاضر

إبراهيم العبيد، رحمه لله

الذي رحل قبل أن يرى هذا العمل.

لا أثر لي عند المُؤرخين، ولا عند رواة الأخبار،

أوجدني المؤلف من خياله؛ لأكتب رسالتي الطويلة هذه.

الرَّجَّاس اليمامي

1- [مدخل]

"وكان هوذة بن علي الحنفيّ يجير لطيمة كسرى في كل عام ـ واللطيمة عِير تحمل الطيب والبَزّ ـ فوفد على كسرى، فسأله عن بنيه فسمّى له عدداً. فقال: أيهم أحبّ إليك؟ قال: الصغير حتى يَكْبر، والغائبُ حتى يرجع، والمريض حتى يُفيق . . . . وهَوْذَة بن علي الحنفيّ هو الذي يقول فيه أعشى بكر:

من يرَ هَوْذَةَ يَسْجُدْ غَيْرَ مُتَّئِبٍ*

إذا تَعَصَّبَ فَوقَ التَّاجِ أَوْ وَضَعَا

لَهُ أَكَالِيلُ بِاليَاقُوتِ زَيَّنَهَا

صُوَّاغُهَا لَا تَرَى عَيْبَاً وَلَا طَبَعَا

. . . . وقد كتب النبي صلى الله عليه سلم إلى هوذة بن علي يدعوه إلى الإسلام كما كتب إلى الملوك." **

---

* **متئب**: مُستحٍ، من الحياء.

** العقد الفريد ج٢، ص ١٠٧ ابن عبد ربه الأندلسي.

2 - [رسالة الرَّجَّاس اليمامي]

ذَا التَّاج(١)،

أَيَّد الله مُلْكك، وأَدَام جَاهك، وأَعزّ دولتك، وأَطال بقاءك، وَكَبَت أعداءك، وأَطاب ذِكْرَك، وأعزّ نصرك، وأَطارَ صِيتك، وزادك فضلاً، وكان لك في مقالك وفِعالك، وأبلغك الغاية الكبرى.

أكتب إليك رسالتي، ناثراً في سطورها مشاعري الناضحة، وراوٍ لك من أخبار القوافل وشجون أهلها، ورحيل الرفاق تباعاً، وغيابهم في فجوات مَنَاياً تُشبه سكراتها من يفتح عينيه تحت الماء، وعن زحام أطياف الحبيبات، اللواتي غِبنَ في ضجيج السنوات البعاد، وعن ألم الرحيل الذي داج بأقدامي قبل أخفاف راحلتي فجوج الفلوات، وانتزعني من أرقٍ شديد، وأولجني في أرقٍ أشدّ، حتى أشفق علي العدو قبل الصديق، وَرَقَّ لي قلب الحَجَر قبل لُطفِ المطر، وأَسَفَت علي النار قبل برودة الماء.

خرجتُ من جَوِّ اليمامة(٢) ضحى العيد الكبير، في لطيمة تحمل على ظهورها صناديق مشحونة بالعطور ولفائف الحرير، وسِنّي يومئذٍ أربعةٌ

وعشرون عاماً، بارز الأكتاف، نحيل الجسم، عيناي سوداوان صغيرتان، وعلى رأسي عمامة صفراء بأطراف مجدولة.

كنّا قد تجاوزنا القفار والوديان، بعد سير استمر ليال ثلاث وتزيد، لأُوصِل ما تحمله لطيمتي من صناديق وصُرر، ولأشتري قافلة مُحمَّلة سِلالاً من الحنطة والنخالة، وأخرى من الشعير، ثم أتجه بها إلى سوق الخِضْرِمة(٣) بجوّ.

تلقفتنا صحراء جبلية، تشقها أودية لا حصر لها، حفاة كنا تسلخت أقدامنا من حرارة الأحجار وحدَّتها، وبان الإنهاك على الرفاق، كذلك الأنعام المحمَّلة بالمؤن والأمتعة.

وحين انعطفت اللطيمة قُرب وادٍ عريض، التفت في مَن معي، ورأيت اشتداد شمس الظهيرة، والرهط المرافقون قد تعبوا، وكلّت قواهم من طول الطريق، وزاغت أبصارهم من فرط التعب، والحرس عن أيمن اللطيمة وأيسرها، قد وهنوا، وتباطأت حوافر خيلهم على الأديم الرطب، وكأن نار الظهيرة قد لوت ظهورهم، فنظرت إلى نفسي وقد انحنى هزالي على ظهر ناقتي، فتباطأ سيرنا، ولأخفاف اللطيمة طقطقة كطقطقة عيدان يابسة رُميت في النار.

وغير بعيدٍ هبطنا وادياً يكاد يكون أجرداً، تتناثر أشجار الشيح القليلة فيه، وعلى طرفه الشرقي رعاة يسوقون إبل قومٍ جوار خيامهم ذات لون بَهُت من حرارة الشمس، فأنخنا دون ماء تحيط به نواحٍ منبسطة،

ومن حولنا قوافل أدركته قبلنا وتزوعت في سعته. عَقَلْنا إبلنا، ونزعنا عمائمنا عن رؤوسنا الدائخة، وأمطنا اللُّثم عن وجوهنا التعبة ثم تخففنا من أرديتنا واغتسلنا من تعب الطريق ومشقة السير، ثم فككنا الصُّرر المربوطة على جنوب إبلنا، وارتدى كل منّا رداءه النظيف، وأحكم عصب عمامته الجديدة، ووضع طيبه.

في مكان بعض الزرائب، أقمنا خياماً، ووراءها كوّمنا حطباً غير قليل، وقرب الخيام غرسنا ثلاث غراس من فسيلة النخل، وفتحنا كوى في حائط طيني من بقايا بيت عتيق سقط أكثر من نصفه.

أخرجنا من البيت بقايا الجذوع والسعف اليابس وفرشناه على الأرض، وعليه فرشنا طيناً رطباً وغطيناه بالحصى الصغار، ثم مددنا عليه ثيابنا ونفضنا عباءاتنا، فَعَلت أصواتنا بنشوة الارتياح، ورُحنا في حكي مُتبادل ونحن نتعاون على تحضير الطعام بعد أن هبط الليل، وحين تركنا قدورنا لتنضج، تحلقنا حول نارنا مُستهلين ما وقفنا عنده من حكايات.

وفي الصباح أكملنا طريقنا، وبعد وقت طويل من السير، بانت لنا كُتل صفراء وأخرى خضراء، وأخرى سوداء، فإذا هي مستنقعات متباينة المساحات، ومن حولها أحراش متناثرة تحفها من جهتها الشرقية، حيث الأودية الواسعة اللصيقة بجهاتها، فكان علينا الميل إلى جهتها الغربية لندخلها من بوابة سورها الغربي.

حينها أشرت لهم أنّا سنمكث ليلة وننعم براحة قصيرة، قبل أي شيء، وحين تجاوزنا قنطرة من قناطر أسوار إحدى البلدات، أنخنا للراحة، وألقت اللطيمة كل حمولتها، وفكت حبالها، وثنى كل منّا ساقه، ونصب الأخرى، واستسلمنا لخَدَرٍ عذبٍ، تقلبت فيه عظامنا إلى أن تنتعش الأفئدة، وتقوى الأجسام، وترتوي العروق، وتبتهج النفوس، بعدها نُكمل متابعة الطريق.

بعد وقت، وقفنا جميعاً ندعو بالتيسير والتسهيل والتأييد، وتفرقنا إلى الاغتسال، وحَلَقنا شعورنا الشعثاء، ثم اغتسلنا بماء دافئ رقراق، وأغدقنا على أجسامنا من الزيت العطري، ووضعنا الطيب. بعدها جلست على حجر من حجارة تُحيط بماء وادٍ عذب، ورحت أُحرك بفرع يابس من جريدة نخل لقيتها في طريقي إلى هنا، رأيت منسوب الحياة والقوة بدأ يرتفع في نفوس الرفاق، بعد أن أكلوا وشربوا جالسين على نارٍ أحاديثهم، وقد عادت لهم دورة الحياة التي كادت أن تقف قبل وصولنا.

رميت الفرع جانباً، فلاحت ذكرى أمي يوم كانت تسحب رأسي تحت عباءتها لتحميني من حرارة الشمس، ونحن سائران في أزقة جَوّ اليمامة، قاصدين سُوقها لشراء ما ينقص البيت، وكنت في طريق العودة أتلهّى بسعفة يابسة.

وحين جَمَعَنا الليل تحت غطائه، بدت وجوهنا محفورة بالتجاعيد، ننظر في بعضها، قابضين في صدورنا على أنّات طويلة، وعلى ضوء النار التي تحلقنا نتسامر حولها تسمرت أهدابنا تنظر في أحدنا، ولسانه يغدق على أسماعنا بالحكايات العتيقة والأخبار البعيدة، وصوته المشحون بالحرقة على ما فاتنا وما سيفوت، يتهادى مع أحداث حكاياته التي اقتلعت نفوسنا وأرسلتها في نغمها الخاص.

تمددنا جميعاً قرب اللطيمة، وجثت كلاب صارت قريبة منّا طامعة في طعامٍ نُلقيه إليها، أبطأت تُحرك رؤوسها يمنة ويسرة، فقام أحد الرفاق واقترب حذراً منها ثم دحرج إليها قطعاً من اللحم النيء وكُتلاً متباينة من الشحم، وما أن نشر الصباح ضوءه، حتى فصلت عن اللطيمة، وعلى حجر أملس رفيع حفرت عليه اسمي حتى جدي الرابع، وتاريخ مولدي، وبيتاً من الشعر حفظته من صغري، كنت قد أكثرت ترديده بيني وبين نفسي، فقاطعني نداء أحدهم بأن علينا الذهاب، ثم تحركت اللطيمة وأقبلنا على السوق راجلين.

كانت حمرة الشمس حينها هادئة، حُمرة وكأنها بدت سائلة، وحين وصلنا كُنا كمن وصل إلى حلمه البعيد، قال لنا أحد الرفاق بخفة دمه المعهودة:

ـ سأسبقكم إلى سوقها قبل أن يغلقوا الأبواب.

ولكز جنب بغلته البيضاء بكعبيه، فانطلقت به نحو بوابة السوق، تتبعه أصواتنا المتداخلة:

ـ تمهل حين تصل.

وأضاف آخر:

ـ اِغنم مكانا لنبيت فيه.

وأضاف آخر:

ـ بدلاً من أن نبيت خارجاً.

حينها تجاوزنا خياماً كثيرة وبيوتاً أكثر، تفرقت كلها داخل السور، وفور وصولنا، كان رفيقنا قد أعدّ كل شيء، فأنخنا، وعَقَلْنا إبلنا، واغتلسنا ثم افترشنا أرضاً رملية، وعلى نعومتها تناولنا غداءنا على طريقتنا المعتادة، وألنّا عظامنا للراحة، ثم شددنا على أنفسنا الأغطية الدافئة لننام ما تيسر من الظهيرة.

مُجْنَا عصراً في ضجة السوق، غائبين في زحام الخلق والأصوات المتلاحقة والمتداخلة، كانت طرقاته قد امتلأت بتجار من مختلف الديار، وتشعبوا فيه كتشعب الجذور في التربة.

حوانيت المؤونة، والدباغين، والبزازين، والفرّانين، وصانعي الفخّار، وبائعي الجُلود بعد مدخل السوق، دخل معنا فتى رديف رجل بدين على بعير أوضح، يتقدم قافلة نجديين قد عبروا المفازات مثلنا، وفي وسط السوق طلبت من أحدهم أن يملأ لي قِرَبتي، أو يدلني على

مكان للسُّقيا، وفجأة، عطّت رائحة جلود الخيل يسبق صهيلها الثقيل، ومن ورائها وقع سريع لأقدام أصحابها وهم حاسرو الرؤوس، وكأنهم يسابقون صياح الحناجر المتداخلة من كل الجهات. خبط لكعوب الخيالة بأجناب السروج الجلدية السميكة، رفعت يدي للخيال الأخير ردّا على سلامه المتأخر وهم مدبرون يتعمّقون داخل السوق، فأدركتهم حتى ضاعوا منّي فإذا بي عند حانوت عَريض لعطار، فَوقفْتُ مائلاً إلى صخرةٍ صغيرة نصفها في باطن الأرض، وَبجانبي وَقَفَ أحد الرفاق حينها فهَزَزْتُ كتفه، وقلت له بهمس بطيء وفمي نصف ابتسامة:

ـ كدنا نغيبُ في قاع سحيق.

وبعد وقت العشاء، أُقفِل السوق وحوانيته في وقت واحد، فاستأجرنا حانوتاً خالياً من كل شيء، وأنقدنا صاحبه دراهمه بعد مفاصلة دامت لوقت، وبالكاد رضي كل منّا باتفاق مكروه، كان حانوتاً من حوائط خشبية سميكة وباب من درفتين. ساعتها نام الرفاق دفعة واحدة، وبقيت ساهراً بملامح شاردة في نافذة الماضي، مراراً قلبت عينيّ الصغيرتين في السقف المصنوع من الجذوع الثقيلة التي تتصالب عليها أحزمة الجريد اليابس التي تتباعد فيما بينها مقدار أنملة، وأتأمل السماء المقمرة من فتحات صغيرة متناثرة في السقف، جالساً

مُنكمشاً في ركن الغرفة، بعد أن تخلصت من ثياب الطريق التي تمزقت أطرافها واغتسلت بسدر وماء دافئ.

رأيت النجوم بلا ضوء ولا سحر نعرفه، وعند باب الحانوت الملاصق لحانوتنا، سمعت رجلين في الخارج يتهامسان، ثم لسان ينفلت بغناء بهي لم أسمع مثله، واسترسل في الغناء أكثر، ثم عاد الصوتان يتهامسان:

ـ وفّر طاقتك لليلة غدٍ حين يجتمع الصحاب.

ـ لا أقدر على كتم مشاعر الزهو والانتظار إلى الغد.

وقال بصوتٍ فيه مرارة:

ـ هل ترى بمقدورنا أن . . . .

وفجأة دخل إلى الحانوت الملاصق حمّالون لهم جلبة، ووضعوا صناديق وغلالاً بدا أنها جُلبت من مكانٍ بعيد، وخرجوا يدفعون عرباتهم ليجلبوا صناديق وغلالاً أخرى، وحين مدوا أيدهم إلى العربات، سقط رأس أحدهم على كتفيه، بينما ظلت كفّاه ممسكتين بالعربة، وهو يُردد:

ـ نُوَاريه في أي مكان، نعم، نُوَاريه في أي مكان.

قال الثاني:

ـ لنحفر له قبراً في البعيد.

رد الثالث:

ـ نُدخله إلى هنا وندفنه في الركن.
قَرَّب الأول وجهه من الثالث:
ـ لا مكان لهذه الجيفة المطروحة في العربة إلا الصحراء.
وسريعاً غادروا مكانهم، وراحت عيناي من بين الفراغات الطويلة على الباب تتبعهم وقد ولجوا عدداً من الحوانيت، ثم خرجوا برفقة رجل كأنه يعرفهم من قبل، وبنفاد صبر أدخل يديه في جيوبه، وتسارعت هزات رأسه من سرعة الكلام، وفور اقتراب منتصف الليل، جاء رجل آخر وأحضر لهم خبزاً ولبناً وعسل تمر، وتداخلت طقطقات أسنانهم في هدأة الليل.
كانت بعض الحوانيت ما زالت أبوابها على المصراع، رأيت فانوساً مشتعلاً، وفتياناً يُنزلون صناديق ويحملون أخرى، ثم أخرج أحدهم ذو الذراع الواحدة، مفتاحاً كبيراً من جيبه الأيمن، فجاء صوت تكّاته حادّ في الأقفال. فجأة سمعت وقع أقدامٍ تصعد السلّم بخفّة، وعلى وقع الأقدام الصاعدة استيقظ أحد الرفاق وتلفّت في النائمين سريعاً، وفوراً افتعلت النوم حتى أُشعره أني نائم من وقت ليل بالقصير، ودون أن يضيء زيت الفانوس، سار بخفة على أطراف أصابعه من بين الرفاق المتساقطين بعد تعب الطريق، وحين أدرك أن الصوت من الحانوت المجاور، توقف عند فراشي ونظر إلي طويلاً، ثم وضع كفّه على

مصراع الباب قليلاً، وبعد صمت عاد إلى فراشه وعدل الغطاء على جسمه.

وفي اليوم التالي، ومع انبساط ضوء النهار، وتحت سقف يتوسط بين المتاجر والحوانيت المتجاورة الممتدة، ركضت عابراً أزقة وممراتٍ مكتظة بالناس، قافزاً فوق الأحجار البارزة وحفر المياه القذرة، مُتخطياً حوانيت مُتراصّة عن يميني ويساري، فكدت أزلق في وحلٍ طيني ظَهَر في طريقي فجأة، إلا أن الرحمن كفاني شر السقوط وشركه.

كان شعاع النهار يُنير السوق قادماً من الشقوق والفتحات المتناثرة على السقوف، حينها انعطفت في زقاقٍ قريب، فكدت اصطدم برجل يحمل صندوقاً فارغاً وسلةّ على رأسه مليئة بالخبز.

رأيت معبداً بجانب دكان لبيع التمور، وبجانبه قناة، فانحنيت وغسلت وجهي بماء القناة البارد، وللمرأة الأولى رأيت بقعاً داكنة على ساعديّ، كأنها بسبب أنياب قط، فجففت وجهي ووقفت إلى باب دكان التمور لأبتاع ما طاب، فطلّت ساعتها امرأة جميلة ذات جاذبية، تتبعها صاحبتها التي تفوقها جمالاً، كأنهما غريبتان جاءتا من بلدة غير بعيدة، لم تُحيّ أحداً من الزبائن، فبدا الاندهاش على وجوه الزبائن، مدت يدها إلى إناء مملوء بالتمر، وأكلت تمرتين، فسال عسل التمر فوق شفتيها، ثم أعطت صاحبتها تمرة، وأخذته ونظراتها لم تُفارق شفتيها، وسألتها:

ـ طيّب طعمه.

وبطريقة تشبه اللغز قالت:

ـ بالتأكيد.

ثم أخفضت رأسها ضاحكة، فتداركت ذلك، سائلة صاحبتها بعد أن أشارت إلى فتى دميم عريض الوجه يقف بينهم:

ـ هذا؟

أجابت صاحبتها ولرأسها هزات سريعة:

ـ لا لا هو أطول وأعرض.

فتنهدت قائلة بنغمة مرتاحة:

ـ أُصدّقك.

فأَمْسَكَتها من يدها وجرّتها معها، وعبرت معها طريقاً من الحجارة المرصوفة بعناية، المؤدّية إلى داخل السوق، رحت أُبصر خصرها الممتلئ، وكتفيها المائلتين، وعنقها الطويلة التي ارتمى عليها شعرها الحريري الأسود العطري، وكأنه حزمة من النرجس غذّتها شمس الصباح الباكر، فطار من فمي أنين طويل، ثم طلبت من البائع أن يزن لي ما يكفي من التمر، حينها شكرت بائع التمور بعد أن زان لي وزناً من التمر لآخذه إلى الرفاق، ثم سريعاً غادرت الدكان، قاصداً مجلس من اتصلوا بتجارة ما أتيت لأجله، لعلي أتصل بمن يشتري اللطيمة وأكمل ما نويت لأجله.

اتجهت مُهَرْولاً إلى مجلس عريضٍ خُصّص لأهل السوق عليه عامل يأتمرون بأمره، كان أغلب الجالسين مُتشابهين في الأردية الواسعة، والعمائم الملونة التي يعتصبون بها.

أثناء دخولي، توقف حديث بعضهم، ومضت أعين البعض الآخر تحدق ناحيتي، فسرى اضطراب سريع في أطرافي، إلا أني تظاهرت بعدم اكتراثي للنظرات المحدّقة، وأوهمتها أني بلا انتباه.

أمرني أحد الفتيان بالجلوس، وأشار إلى مكانٍ يتسع لشخصين، وما أن أخذت مكاني وساويت ردائي ذي اللون المختلط باللونين الزرقة والبياض، حينها أطلقت نظري لسرحان طويل في المكان، فبعد الباب الرفيع العريض بخطوات، تقابلت زوايا كثيرة فيها طالاوت صغيرة قصيرة القوائم، على كل منها محبرة مُكعّبة، وسراج طويل ذو فتيلة شديدة اللهب، وقربها طاولة أخرى بُسطت عليها صُحف مطوية، ورقوق صفراء ذات نقاء ناصع من أي لمس أو كتابة، وغير بعيد منها آنية ماء وقناني زيت، وعندها صناديق خشبية محلاة بنقوش وزخارف ذهبية وأخرى نحاسية.

ارتحلت عيناي على الكتب المرصوصة فوق بعضها على طاولة عريضة ذات أرجل محدّبة رفيعة، ثم إلى المجلس المكتظ بالناس الذين جاؤوا لنفس الهدف والبُغية.

راح الفتيان المتقاربون في الطول وحركة الأعين والأعضاء وطريقة المشي، والمتشابهون في ملامحهم، واللابسون نفس الثياب والعمائم، يصبون كؤوس الضيافة، ويقدمونها عبر تتابع مُنظّم، ليأخذها كلّ من الجلوس إلى فمه رافعاً شكره. اقترب مني أحدهم، يضفي على جسمه رداء أصفر، ويعصب رأسه بعمامة بيضاء عاطرة فواحة، ووجهه أبيض طويل بملامح دقيقة رقيقة، وعينان واسعتان، ثم خاطبني بأدب مبالغ:

ـ ابن قديس؟

أشرت برأسي بالنفي:

ـ لا.

ابتسم ومازحني:

ـ ظننتك ملاكاً هبط من السماء.

وهو يأخذ الكاس من يدي قلت له بصوت خفيض:

ـ تمنيت لو كنت ملاكاً.

ضحك دون صوت ثم سقى كل الجالسين كرّة أخرى، ولما وصلني صبّ إلى الجالس جانبي، دون أن يرفع وجهه نحوه أو نحوي، فجاءني آخر يسألني موضعاً، فأفسحت له موضعاً جانبي.

تداخلت أصوات الجلوس، وتتابع صخبهم فيما بينهم بأحاديث كثيرة ومتمازجة، ألقيت نظري إلى الأرض لوقت ثم سحبته عنها تجاه وجوههم المكسوة بالنظرات المشحونة بالمعاني الكثيرة.

جلس إلى جانبي شيخ مُتأنقٌ في الطلّة والملبس، عليه عباءة رمادية من القماش الناعم، حُلّيت حوافُّها بخيوط صفراء حريرية لامعة، ألقى إلى أحد الفتيان صرة قماشية صغيرة، وغمغم:

ـ هي لك ولصحبك الفتيان.

ثم انحنى عليه الفتى في كلام هامس بينهما، وانصرف يُغالب ضحكه، ساعتها دخلت في مبايعة مع البعض، إلا أني لم أفلح في إقناع أي منهم، بحجج الخشية أن تبور البضائع أو تُسرق.

وبعد أن تملكني يأس ثقيل من بيع اللطيمة وجدت نفسي تأخذني إلى مخدع عرّافة من عرّافات اليمامة، كانت تُجاور الحوانيت القريبة، دخلت إلى بيتها تحملني خطوات بطيئة، وعبرت الباحة الرطبة من رذاذ جاء مع الصباح، دعست قدماي على تربة ناعمة جداً، ومشيت حتى استقبلتني خادمتها الخلاسية، ملامحها طفولية، وقدّها مرتوٍ، تختمر بخمار عبق بالحناء، فأخذتني إلى حجرة يخنقها البخور الزكي، وأشارت لي بالجلوس:

ـ بعض الوقت وسيحين دورك إلى الدخول.

كنت وشاب قَدِمَ منذ قليل، كان وجهه غريباً من بين الجالسين، له ملامح شبه مشوهة، وعينان قاسيتان، وأطراف مُتراخية، ولباس مُبقع بالأبيض، كأنه يعرفني ولا أعرفه، وما أن جلست حتى نهض خارجاً دون أن يأذن له أحد، نظرت إلي الخادمة الخلاسية بعينين مغناجتين،

ثم استدارت وَالِجة الحجرات، وأنا أراقب منديلها الحريري الأصفر، وردفيها النابيين، حتى عادت مبتسمة قائلة:

ـ بإمكانك الدخول الآن.

دخلت فإذا العرافة مُتكئة على بساط وثير مُدّ على كتلة عريضة من الرمل الناعم، وأحيط بقطع من السعف المنظم، ومن خلفها حائط بُني من الحجارة ذات المنافذ المربعة، والتي جُعل في كلٍّ منه مصباح أو لفافة، نظرت إلي حتى جلست، ثم أدخلت عصاها المائلة القصيرة في صغار الجمر، وسألتني:

ـ ما شكواك؟

وما أن فتحت فمي مُجيباً حتى مضت ترش طحيناً من اللبان فوق الجمر، وتفرد قطعة من القطن في حضنها، فانطلق لساني:

ـ بعد رحلتي الصحراوية الطويلة، ما عادت بي طاقة أو حماس على تحمل عبء بضاعة أخرى باهظة الثمن، فقد بدأت لي رغبة في الموت، لينزل بي ويريحني من الترحل حالاً.

وأشرت بيدي المرتعدة نحو تجاعيد بدأت تخط على وجهي:

ـ أو تُشقّ الأرض وتبتلعني، فالترحال ما عاد بُغيتي.

ضَحِكت وتأتأت من فرط الضحك:

ـ هزيل وخائف وتريد طعم الموت.

جمعت يديّ في حضني:

ـ بل وأجد نفسي ضائعاً لا أعرف أين أذهب.

انتزعت عصاها من الجمر:

ـ وماذا غير ذلك؟ صحتك؟

نظرتُ في المنافذ المربعة:

ـ لم تتحسن صحتي كثيراً، بل تضاعف أنيني أثناء نومي، واندلق بكائي المفاجئ من غير سبب.

وضَحِكَت مُسترسلة:

ـ من في عمرك عليه أن يخطف القُبلات من شفاه الفتيات.

بقيت صامتاً لم أفه بكلمة، وكأنها لم تجد على لسانها غيرها، ورددت قولها بصوتٍ عالٍ:

ـ من في عمرك عليه أن يخطف القُبلات من شفاه الفتيات.

فقلت بصوت أعلى قليلاً من صوتي يوم جلست:

ـ علي الذهاب أيتها العرّافة.

وخرجت من عندها مهرولاً، وسريعاً تجاوزت بابها إلى ساحة السوق الواسعة، حتى انتبهت أني تأخرت كثيراً، فهرولت عائداً إلى الرفاق عند احمرار المغيب، فكان ما لم يُحمد عقباه، فقد أغارت خيل حمر على اللطيمة، وراح خيالتها يتناوشوننا بأعوادهم وسلاحهم الأبيض، فاستبسل الرفاق جميعاً راجلين لصدهم وحماية اللطيمة من سوئهم، حتى قُتِل أكثر الرفاق بعد أن تطايرت الصيحات قبل العمائم، وما كان

من الخيالة إلا أن رشقوا بقيتنا بالرماح، جرحني أحدها جرحاً لم أعلمه من فوران دمي، وأجهزوا على من سقط جريحاً، حتى حال الموت بينهم كلهم، وظفر الخيالة باللطيمة واقتادوها أمامهم وذهبوا بها.

تفحص الخيالة المتأخرون الجثث، وحين لكزني أحدهم ظن أني جثة هامدة، حيث أوهمتهم بموتي، وحين أدبروا، زحفت حتى اختبأت خلف صخرة عريضة، بعد أن تحاملت على جرحي الذي ظننته طريقي العاجل إلى الموت، فتواريت حول هضبة قريبة، وانتزعت رقعة من ردائي وطويتها على جرحي، ثم هارباً تسللت بحذرٍ بين البيوت الطينية والطرقات الضيقة، لأسقط بين حوانيت تركها أهلها من شهور.

وما أن تمدد الليل البهيم على سطوح البيوت، وأغلقت حركة الحياة جفونها، حتى انطلقت أنفاس ثقيلة تجر رتابتها من بين مداخل الأعشاش ونوافذ البيوت القريبة، ومع ظهور الغلس فتحت عيني على صوت ديك ذي نغمة صاخبة غير مألوفة عن أصوات الديكة.

في تلك الليلة استيقظت مراقباً السكون المترامي بين الحوانيت والأزقة الفاصلة بينها، حتى كسرته جَلَبة قادمة إلى حيث أنا، تلاحقها أصوات تُنادي بعضها:

ـ إياكم أن يُفلتوا.

وصوت حَجَر يُرمى:

ـ نشازٌ هم.

وصوت يبصق صاحبه:

ـ لا غرابة منهم . لا غرابة.

بقيت في فراشي القش مُغمضاً عيني محاولاً الهرب من جلبة تلك الأصوات، بيد أن الضجيج الذي يُسايرها حفزني لأفتح عيني، فلمحت من شرخ الباب رجلين يجر كل منهما فتى مُقيداً وخلفهما ثالث على فرسه البيضاء مُمتشقاً سلاحه، يتبعه رابع راجلٌ يسدّ بيده اليمنى فم امرأة تحاول أن ترسل صرخاتها من تحت يده لتدور في سكون الليل.

ركض نحوهم فتى أقرع قاضماً رداءه، فتلقاه الرجلان وأسقطاه أرضاً وربطاه بحبل جُدل من السعف، مُنْتَهٍ إلى عمود قرب متجر العطار، وهو يحاول أن يدفع القيد عنه مُردداً:

ـ أتظنون الناس دواب!

فتغامز الرجلان:

ـ أتظنه يخدعنا.

لوح الثاني بسلاحه الأبيض:

ـ أمثاله يقتل البريء ويحضر عزاءه.

مكثت حتى شعشع الصباح، فانسللت إلى خارج السور لعلي أجد ثغرة للهرب، أو التحايل حتى يكتب الله لي نجاة من هنا.

دار بصري في البعيد، ثمّة سِرْب حمام بريّ يطير ويحط مراراً على أغصان شجرة جرداء ذات أغصان ذاوية وأخرى مائلة، راحت تتداخل

ببعضها وتطير كالمخطوفة إلى السماء ثم تعود كسقوط الشهاب، وكأنها تحاول اقتلاع الأغصان أو كسرها، وقفت مُتشاغلاً بمنظرها ومعجباً بإصرارها، فاستيقظت في نفسي أُمنية لو أنني من هذا السرب اللحوح على طموحه، فأمدّ جناحيّ للفضاء البعيد، وأطوف الديار صوب بلدتي جوّ.

أخذني فضولي أكثر، فسرت نحو الشجرة بخطى بطيئة خفيفة لا تختلف عن خطى السارق، فخرج من بين السرب ذكر حمام ذو لون رمادي داكن، وحلّق خلفه بقية السّرب كعاصفة نفضت أولها، بدت أجنحتها تخفق تباعاً في صمت الصحراء حتى ابتعدت إلى مكان غير بعيد، وهبطت على رابية ذات اخضرار يشبه خرائط البَرَص على الجلد.

لقد بدت القرى المحيطة كمقابر تقيّأت موتاها خارج أسوارها، ففي الفجر يكون السراة قد أفاضوا من الإدلاج، ليقبلوا رُسلاً لأنباء الغزاة أو معسكرات الخصوم، وفي الضحى يستحيل البعض إلى وليمة للعقبان وسباع الصحراء.

كان هذا يوم اصطف خصوم قرب هضبة غير بعيدة منّا، وكان غبار خيولهم يدل أنهم قادمون للتو. وقفوا كالمسامير على اللحاء اليابس، تغلب عليهم قساوة الملامح، وصرامة المقاصد، وخطب فيهم أميرهم خطبة عنيفة التعابير، وهم مُنصتون إليه بزهوٍ كبير، ومسامع مصغية،

وما أن انقضوا حتى فقد أحد الفرسان حكمته، واستحالت شجاعته إلى اندفاع أحمق حين خرج وحيداً للقاء جماعة كبيرة من الفرسان، يوم عَرف عن معسكر غير بعيدٍ للغزاة، ناداه من بين الجمع أحدهم مُحذراً:

ـ إنك تمضي إلى موتك!

فردّ بصوت ممتلئ بالغضب:

ـ سأقاتلهم بسيفي، ومن فوق فرسي.

فاندفعت به فرسه الحمراء بين النخيل، وبجانب قنوات الماء متجاوزاً بيوت السدو والطين، فرأى المدى الواسع، وقطعان الإبل والخراف يسوقها الرعاة، تذكر ابنه الذي اختطفه الغزاة من أمام إبله ذات نهار.

وساعة توسطت الشمس صفحة السماء، راقب ببطء غياب أسوار البلدة خلفه، فلاحت له أعداد الخيام الكثيرة، فأدرك أنها معسكرات الخصم.

صب نار غضبه على فرسان اعترضوه دون الوادي، وقبل أن يصل بمسافة ترجل عن حصانه مواصلاً عَدْوَه، وامتشق سيفه من جلد غماده، فأحاطه الفرسان وانقض عليه أحدهم، فتماكنه وبَقَر بطنه، فهوى الفارس مكانه ودمه ينزّ نافراً. تراجع بقية الفرسان، ووقفوا بسيوفهم دون المسافة المُتبقية من الخيام، كي يمنعوه من المواصلة، فصاح بهم:

ـ إياكم والاقتراب، فسيفي لا يحيد عن بقر البطون أو قطع الأعناق.
تراجع نَفَر منهم، مُؤْثِرين دماءهم، فأخلوا المكان، بينما ظل آخرون شاهرين سيوفهم نحوه، وهم بنظراتهم في بعضهم يتشاورن، فتقدم إليهم مُحذراً:
ـ ابتعدوا، هو الأسلم لكم، والحقوا برفاقكم إني ناصحكم.
نظروا في بعضهم، فتراخت أيديهم، وأعادوا سيوفهم في غمادها، وتراجعوا خلف رفاقهم وفي نظراتهم نيّة غير مريحة.
وكالبرق اخترق الصفوف كجارحٍ باغت الفرائس، وراح سيفه يُعمل في الفرسان، وصيحاته تُهيب الرماة، إلى أن عاجلته سيوفهم وجرحته، وأوقعته قتيلاً قُرب الخيام.
قبالة معسكرات الخصم، ارتقيت درجات السلم الطيني المؤدي إلى السطح المعلق فوق الباب المصنوع من الجذوع والألواح، ومن أعلى السطح رأيت عدد مهولاً من العقبان تهبط كالمطر من السماء على جثامين قتلى ذلك النهار، غير بعيد من البيت حطّ عقاب واسع العين كئيب المنظر، ونقر الجثة بمنقاره الكبير، فجأة، حدّجني بنظرة غير مريحة، رأيت لمعان منقاره تحت شمس الظهيرة، كأنه نصل أصيل، حينها قفز قفزات متتالية غير مستقيمة إلى هناك، إلى الجانب الآخر من مكان القتال، عند صفٍ من جذوع النخل المركونة فوق بعضها،

فتحركت بقية العقبان خلفه كجيش آخر، ومضت تجرجر بمناقيرها القتلى والجرحى من الطرفين، وترميها في حفرة في قلب الميدان.

طارت أكثر العقبان ثم عادت سريعاً، فإذا بها تُجهز على الجرحى ومن ظنت به بقية من حياة، ضاربة بمناقيرها الأعناق ذات الدماء الفائرة من حرارة القتال، وأخرى تهشم الرؤوس وتبث سكرة الموت العاجل في الأعضاء.

سال كثير من الدم تحت سريان السيوف التي مزقت كل من ولج ميدانها، بدت الأرض فخاً لانزلاق الأقدام، هناك في الجانب المقابل عقابان يقفزان على جريح بدى أنه فارس عجزت عن الإجهاز عليه، وهو يصارعها بيدٍ واحدة، بينما يده الأخرى عالقة تحت حصانه النافق من سهام الخصم، وبعد لحظات من مصارعتها، مزقت مناقيرها ثيابه ولحم ذراعه ويده، حتى بقرت بطنه، وأظهرت أحشاءه.

لم يمضِ وقت طويل حتى كان نصف المعسكر داخل البلدة، والنصف الآخر معسكراً في مكانه، وسرعان ما أحكموا حزامهم عليها، مُتوزعين على هيئة نقاط حراسات عند أبواب الأسواق وأمام المعابد، وفي الطرقات الرئيسة المؤدية إلى الحارات، وكل فرقة تبعد عن أختها ثلاثين قدماً تحسباً أن تُبَاغت أختها في غلفة، وأغلق الكثيرون أبواب بيوتهم، ولزموا مستقرهم إلى حين، وفي الخارج تتابع أزيز العربات ورغاء

الإبل ونهيق البغال، وازداد لغط العابرين، وصار الجميع يخشى على الجميع من الموت خارج البيوت، ثم لا يدري بموتهم أحد.

هناك بين الأزقة من اصطادته أيدي الخصوم، فجرجروه على الأرض حتى انحدروا به مع سلم مائل إلى قبوٍ قديم، وذبحوه هناك، ومضوا يتضاحكون على غرغراته المتلاحقة من بلعومه الذبيح، يتململ كثعبان حتى اخترق النمل فتحات جروحه، وقد اختلطت غرغراته بنداء امرأة طويلة برصاء، أطلت من خلف عربتها:

ـ مؤونة شهر أمامكم، زيت وتمر وحنطة ونخالة أيضاً.

فتحرك دم النشوة إلى الحياة في عروق الجائعين والظامئين، وأشرعت أبواب البيوت، وأحاطوا بعربتها ليأخذوا ما يُخمد ألم الجوع، ويُطفئ نار الظمأ، أماط أحد الواقفين لثامه وصاح فيهم:

ـ أناس افترسهم المرض، أما ترون؟!

نظروا في أعين بعضهم البعض، وتراجعوا خِفافاً إلى خلفهم، فصهلت خيولهم ورغت نوقهم، وهم يتمتمون في تراجع مستمر إلى خلفهم.

وضعت المرأة المؤونة على ظهر العربة، وثبتتها بحبل غليظ حيك من صوف الماعز:

ـ جئتم ضيوفاً طارئين، فخذوا غلة الحنطة هذه.

وأمالت الغلة على جذع يابس، وجرّت بغلتها جاعلة رأسها نحو البوابة الشرقية لأسوار البلدة، وضربتها بسعفة في يسراها:

ـ إلى الضواحي، نوزّع بشائر مرّت هنا ولم تجد من يفتح لها ذراعيه.

نجوتُ وغيري الكثير من سهام الأقواس ولمعان النصال، والملاحقة المتواصلة، والحتف الذي كاد أن يصلني حين كنت نائماً قرب صخرة أو حذو ناقتي، اعتدت في تلك الفترة أن أتوارى ليلاً ضاماً خنجري الأبيض إلى صدري، وحاملاً صندوقي الصغير الحاوي لما بقي من مال، كنت أخرج إلى بعض البساتين أو أدخل إلى بعض المتكآت القريبة منه، وما أن أرى الحرس الليليين سائرين في الطرقات وبين البيوت، أمشي وكأني لا ألوي على شي.

وفي غفلة من الحرس الليليين والناس العابرين وربما الجان غير المرئيين، انسللت بخفة كطائر ليلي هارباً، مُخاطراً بنفسي إلى حيث لا يُعلم، فلا شيء في الطريق غير الكثبان المترامية بلا حدود، تناورني وكأني لا أراها، كأنها حشود ثائرة تفيض غضباً، وتتخاطب تحت ضوء القمر المائل إلى قاع الأفول، مُستسلمة لنسيم عذب هبّ فجأة، وراح يُحرك الرمل كَلَعُوب تُحرك حريرها وشعرها.

شاهدت نسوة يقصدن بئراً على ضفاف ماءٍ قريب، استوقفتهن ورحت أطلبهن شربة ماء، وربتت إحداهن على كتفي ومضت تسألني:

ـ ألك صَاحِبَة؟

قلت مقطباً جبيني:

ـ لا.

زمّت إحداهن فمها قائلة:

ـ قدّر عددنا إذن؟

سألت وأصابعي تغوص في شعر رأسي:

ـ لمه؟

وبصبر كبير قالت أقربهن مني:

ـ لنسقيك؟

قلت ضاحكاً:

ـ أربع أنتن.

صاحت إحداهن:

ـ فزت.

فسقطت محموماً لا أقوى على تحريك أي من أعضائي، فجاهدت ولم أقدر، حينها أقبلت الأولى وحلّت خمارها وقربت قِربتها:

ـ اِشرب.

ونظرت كفاقدٍ للأمل، وقَرّبت قربتها أكثر:

ـ ما بك لا تشرب؟

شعرت برغبة في البكاء على ما حل بي في هذه الصحراء، وكيف وقعت ألعوبة لنسوة عبرن إلى ماء قريب ليتني لم أكن في طريقهن.

حينها تلاطم برأسي نعاس ثقيل، وصوت أُخراهن قائلة:

ـ لا أدري، أظنه حي بعد.

ثم حملن على رؤوسهن صُرراً، وعلى أكتافهن قِرَباً، وابتعدن في الأرض خِفَافاً.

وبعد وقت قضيته طريحاً، اشتعلت العافية في أعضائي، فانطلقت إلى ناقة شريدة عند سفح جبل قريب، فكان قدرها أن تُرافقني، فاستأنستها وأسندتُ إليّ سلاحي، فلكزتها وغادرت ثم تجاوزت شرقاً حين مال القمر إلى منزل الأفول، التفت ورائي، فرأيت الظلام يتماوج في سعة الصحراء، أكملت إدلاجي وكأني أتبع ظلاً أمحوه على الرمل كلما تقدمت في طريقي.

بعد ليالٍ من هروبي، دخلت وحيداً إلى بلدة أخرى، مُلتفاً بعباءة صفراء، لم يصل معي من القوم الهاربين أحد، عشرون ذهبوا دون رجعة، من بينهم فتى وولى، بعد أن أعدّت الصحراء قبورهم.

وهناك دخلت سوقاً كبيرة، رأيت التجار أمام حوانيتهم، ومن حولهم أكوام السلال والبضائع والصناديق، إبل بلا عدد، وبغال أكثر من أن تُعد، في المداخل العميقة المعتمة رأيت فتية يقعدون ومرة يقفون وكأنهم مُلاحقون، هناك قُرب حانوت بائع البزّ والثياب، رأيت زحمة كبيرة، فاقتربت فإذا بهم جنود يشدون فتى من مرفقيه ويخرجون به من بين الزحام إلى خارج السوق، ووقف على رأسه رجل مُهيب عريض طويل، أجشُّ الصوت، لم يتمهل في مشيه حتى وصل موضعاً من

السوق يخطب منه الخطيب، فبدأ خطبته فور اقترابه من الموضع، وسبّابته اليمنى على رأس الفتى:

وقد عبثت يدُ هذا الفتى اللئيم اللعين بمصالح البلاد، وسعى في تخريب حياة أهلها، وتراكمت الاتهامات بحقه، وأُخذت بشأنه أقوال الشهود، ودُوّنت مطالبات المتضررين منه، وقُرنت بالبراهين الدامغة على ارتكاباته التي لا تُغتفر، وها نحن ننبئ أهل البلدة في سوقها الكبير هذا، أن ولاتها ماضون في مطاردة العصاة والمخربين ومن آزرهم.

وما أن سكت حتى سارعت أيد الجنود إلى جرّ الفتى والذهاب به إلى حيث لا يُعلم، أما أنا فبقيت على حالي حتى ابتلع ظلام الليل الحي والسوق والناس، وفي هجعة الطرقات والممرات سرت مُحاذياً الأبواب كقطٍ جائع، رأتني إحداهن قُرب حانوت الطحين، فأحكمت غطاء وجهها، وخطفت عصاها المُلقاة إلى مصراع الباب الأيسر، واتجهت إلي سريعاً، وجاذبتني:

ـ غريب عن الحي؟

هززت رأسي هارباً بعينيّ عنها، فأرسلت أسئلتها سريعاً:

ـ من أي الديار؟

أحكمت عمامتي على رأسي قائلاً:

ـ من جَوّ.

أعادت بغنج جوابي:

ـ من جَوّ.

ثم تضاحكت واستدرجتني في الحديث الذي جاهدت الهروب منه، ثم مَدَدْتُ خطواتي إلى آخر السوق، وهي تسير بخفّة عن يساري مرة عن يميني، وهي مسترسلة سائلة:

ـ ألا تريدُ مَبيتاً؟

أجبتها بلكنة مُتعجّلة:

ـ لا.

ـ ما رأيك في جيران أُوصلك لهم؟

ارتفعت لكنتي أكثر تعجلاً:

لا . لا أريد جيراناً ولا حتى مفتاحاً يوصلني إلى باب أحد.

وألقت سؤالها الأخير وهي تنفض عباءتها وتدير كتفها ذاهبة:

ـ ألا تريد استرداد دينٍ قديم؟

لم أُجبها، فأرسلت آهاتها مبتعدة:

ـ كُنتَ ستَأنس بالجلوس معي فخسرت.

وراحت خطواتها المائعة تبتعد سريعاً إلى حيث التقتني، فوقفتُ مَادّاً عنقي باتجاه الطريق الضيقة الممتدة بين المتاجر القريبة، مترقباً ظهور من أعرفهم من أصحاب قدماء، ظهروا في مخيلتي الصغيرة الآن، أما على الواقع فلم يظهر أحد.

كـأن الطرقـات والأزقـة قـد عافـت النـاس والعـابرين ولـم يُـرَ أي آدمـي يـجول أو يعبر بـين الـمتاجر والبيـوت للتبضـع أو للعمـل أو يُطـل مـن نافـذة أو مـن باب طـارف، غـير قامـات نسـوة مـائلات عـبرن أخـيراً، اتشحن بالسواد في حبور دغدغ ذاكرتي، حين كنت زمناً قد فات أُطارد حسناوات جوّ في بساتينها وسوقها العريض.

جلست على بساط من القش، راجف اليدين، تذكرت قبل سنوات، كيف هربت من مئة خيال كانوا منتشرين في جوّ اليمامة وخصوصاً الحي الذي نسكنه، حين اشتعل الاشتباك على بوابة السور، ساعة جاءت الإمدادت إلى الجيش المُحيط بسور البلدة، فدحرجوا الجذوع ونصبوا المنجنيق، وأمطروا الأرض بوابل من الحجارة المشتعلة، لم تسلم من جنون حربهم البيوت ولا البهائم، ثم تقدموا بعد طول الحصار إلى داخل البلدة، كنا وقتها نجمع ثيابنا وما أمكن حمله، وسريعاً جررت ناقتينا من خطامهما، وناديت أمي وأُختيّ بصوت مرتعش من الخوف:

ـ عجّلنَ عجّلنَ.

فرأيت النيران تتساقط على البيوت كما تتساقط الأمطار، وجنود العدو يثخنون الناس ضرباً ويسلبون أموالهم وسلاحهم، وما أن استوت أمي وأُختيّ على الناقتين حتى فطنت من وراء ظهري لاشتعال الأسوار والزرائب، ثم شممت رائحة النار ودخان الحجارة، ومن تحت الشرار

المتطاير هربنا على ناقتينا، من بين بيوت الطين المتقاربة والحضائر التي اشتعل فيها التبن والشعير، تجاوزنا سريعاً خارج السور، والهروب صوب الصحراء سهل لمن تجاوز السور، وها أنا أعود هارباً كرّة أخرى، ولنفس الألم والعلة.

البلدة كبيرة وممتدة جداً، وأهلها مُوحدون وهو الغالب عليهم، وهم في جملتهم كِرام طيبون مُحسنون، وبيوتهم متجاورة ومتقابلة شديدة الرحابة، كانت أنحاؤها مُتأنقة دقيقة الرسم: البيوت، الجدران، الأبواب، النوافذ، الطرقات، الممرات المُغطاة بالزرع.

إنها بلدة واسعة لها حصن حالٍ وسوق كبيرة، وحمّامات ذات سعة لم أرها من قبل، وفي سوقها تأملت وجوه الناس والأمتعة المطروحة والصبيان الذي يُرشدون الداخلين والسائلين من القادمين الحائرين

قضيت أياماً تائهاً في سوقها، رأيت في أحد الدكاكين كتباً ذات أغلفة جلدية سميكة، أُنتزعت بعض أوراقها، وعندها شيخ يجمعها، لم أُكثر النظر في الناس، كيلا أثير الناظرين من حولي، حين رأيت البلدة أول مرة ظننتها هي سر الدنيا الغائب، لم أكن دخلتها من قبل إلا مع والدي وأنا ابن سبع سنين، ولا أذكر إلا لمماً من الصور التي تشبه الأحلام المختلطة، ثم بعد سنين دخلتها هارباً بأمي وأختي، وها أنا أدلخها وحيداً هارباً.

أمضيت كل صباح أعرض نفسي على أمراء القوافل العابرة والتي أناخت قُرب السوق أو عند السور، عرضت نفسي حتى على القوافل التي استراحت عند الماء، بُغية أن يقبلوا بي رفيقاً أو خادماً في قوافلهم، ليكون طريقها خيطاً يُعيدني إلى جوّ اليمامة سالماً ولست غانماً طبعاً.
لم يمضِ وقت طويل على البحث حتى كان الحظ كبيراً وسريعاً، التحقت بعد أيام قليلة بقافلة بها عشر من النوق، وسبعة أحصنة، وثلاثة بغال، وجملين وهودجين مُزيّنين، قبل بي أميرها خادماً، بعد أن أخبرته بخبري وسوء منقلبي، فكانت البشارة أعظم مما في ظني، قال لي أن حظي كبير، فهم يقصدون جوّ لذاتها، لزيارة رهط لهم معهم أمر قديم.
وبعد العصر، انعطفت رؤوس الإبل نحو جوّ، فاتجهنا إلى جبل يعرفه بعضنا، ووجدنا عنده أناساً ليسوا بالكثير، وكان المساء يُحيطنا شيئاً فشيئاً، ارتقيت حينها إلى الطرف الشرقي للجبل وأرسلت بصري في الاتجاهات كلها، سمعت وقتها ضحكاً ناعماً من الناحية القريبة من الجبل، فالتفت، نظرت إلى جهة الصوت الضاحك مستنكراً، فإذا بامرأة عفراء في ثوب من التطريز النجدي، جسمها بين الامتلاء والارتواء، تحمل في يسراها قفصاً من رقائق الجذوع والجريد، من الأقفاص التي يصنعها النجارون في الأسواق الكبيرة، أقبلت نحوي متمايلة كأنها تعرفني من قبل:

ـ أنت أمير قافلة مُحَنّك، وحظك كبير بلا شك.

فوقفت مشدوداً، وعينيّ مُتسمرتين بها، فحال بيننا بعض الصمت الطويل، وسألتها:

ـ ومن أنتِ؟ أميرة قافلة أيضاً؟

ضحكت قائلة:

ـ هئ هئ هئ، أميرة قافلة، هئ هئ هئ.

فدبّ بعض الغضب في دمي:

ـ أفي سؤالي ما يضحك؟

أوقفت ضحكها فجاة:

ـ وددت لو كنت أميرة لقافلة، أي قافلة، ولو كانت من بغلٍ وحمارين.

ثم تسارع ضحكها وهي تنظر يميناً وشمالاً، واستدركت:

ـ أنا خادمة سيد قافلة الحرير تلك.

وأشارت إلى قافلة أناخت من وقت طويل عند سفح الجبل، فنظرت إليها بعينٍ غير مستريحة، فسألتها والتعلثم يكاد يتمكن من لساني:

ـ أبحث عن الطريق المؤدية إلى جَوّ، والصحراء كما ترين كبيرة، فأي طريق يوصلني إليها في أيام قلائل؟

فنظرت إلي نظرة ولهى، وأجابت سؤالي بلا تردد:

ـ من هيئة القافلة التي أنت فيها، تبدو غير بعيد، أيام فقط تفصلك عن جوّ.

وسريعاً غادرت متمايلة إلى قافلة سيدها، فكاد صوتي يتمدد بالنداء الشجيّ.

ومع أنفاس الفجر الأول، سارت القافلة على ضوء المشاعل في صفٍّ طويلٍ يميل شيئاً ثم يستقيم أخرى، وكنت في نهايتها وعنّي بغلتان تحملان صناديق خشبية من الطعام وعلى رقابها عُلّقت قرب الماء، بالكاد حينها رأيت غبش الفجر من أول القافلة، حيث حرصت أن أتابعها من آخرها، لأطمن لا غير.

شيئاً فشيئاً غاصت قافلتنا في الصحراء، فصادفت قوافل وهوادج ذاهبة وأخرى قادمة، راحت الشمس الدافئة تُنير القفار والبلاد، فحجب بعضنا عينيه بكفيه عن ضوئها، سرنا على انتثار الأفق تاماً على مد الأنظار، ومن فوقنا سماء حمراء يغازلها الغيم الماطر، فانكشفت التلال الذهبية، ومن حولها وديان متجانسة منخفضة وغير منخفضة، تُحيطها أشجار شوكية وعطرية.

رأيت الرفاق برؤوس تميل وتعود لتستقيم ثم تميل أخرى، كأن النعاس يطرق أجفانهم، والخرس يخيط أفواههم، لا يتكلم أحد، ولا يُغني أحد، كانت الإبل تسير أسرع ما كانت عليه من قبل، وحين انكشف نور النهار، وأبهر الأبصار، وأتعبها في آن، بدت الشمس بعيدة عن الرؤوس، وعلى مد النظر رأينا قرى كثيرة للتو أفاقت من نومها، أخرجت قربة الماء وحسوتُ منها رشفات، وأرجعتها مُعلّقة على ظهر

ناقتي، والتفت يساري فرأيت أحد الرفاق فوق ناقته الصفراء، يميل برفقٍ للخلف ثم للأمام، ابتسمت، وهززت رأسي شاكراً لله على كل شيء.

جاء اليوم التالي مُلبداً بالغيوم، فأنخنا، وعَقَلْنا إبلنا، ثم فرشنا أمام الخيام الطين الرطب، وبسطنا عليه سجاجيد طويلة، كنا قد أكلنا خبزاً من دقيق البر، وشربنا لبناً من ضروع النوق الراتعة في القريب، ثم نام أغبلنا، وفي منتصف الليل، ظهرت إحداهن من إحدى خيام القافلة المنصوبة قُرب الهودجين، تحمل يمناها فانوساً يُضيء ويختف، فرأت عند مبارك الإبل رجلاً ينتفض تحت الرذاذ محموماً، وعاجلاً سقط الفانوس من يدها:

ـ أنت، هذا أنت!

وقفا طويلاً يحاولان أن يتبيّنا بعضهما في الليل المُقمر، وقالت له:

ـ ألم أقل لك منذ أول يوم ستعود؟

اعتصم بالصمت ثم تساءل:

ـ هل لكم زمناً هنا؟

رمقته باسمة:

ـ من ليلة واحدة، ولكن من ألقى بك أرضاً.

تأفف:

ـ أمير القافلة؟

تطلعت إليه باستخفاف:

ـ أهذا صنيع أمير قافلة؟!

تناول حجراً ورماه:

ـ أجل.

انحنت عليه:

ـ ولماذا؟

فمضت أنفاسه تتلاحق:

ـ لأنني لست على وفاق معه.

ثم جثى سريعاً على صغار الحصى، فتحسسته بأصابع يمناها الراجفة، واحتضنته، وهو يبكي كطفل تركه أبواه، فسقطت أمطار كثيفة عليهما، ابتلت جديلتها ولحيته كما ابتلّ شعر رأسه الأشعث، سكتا زمناً ثم قالت له:

ـ تعال إلى خبائي لتغتسل وتلبس ثياباً جديدة.

وعلى صوتهما، خرجنا جميعاً مهرولين نحوهما، فأسندناه معها حتى الخباء ليرتاح، حينها أبصرنا ناراً بعيدة تُنير ما بين الهضاب، غطتها قطعان إبل شاردة لا راعي يتبعها، نظرنا في بعضها فأشار لنا الأمير أن نتبيّن الأمر، فانطلقنا نحو النار فوجدنا عندها شيخاً شديد حُمرة الجلد، كثيف اللحية، أصلع الرأس، جاحظ العينين، يقارب الموت، تناولت الجرة لأسقيه:

ـ اِشْربْ، خذ واشرب.

تناول الجرة بيدين هزيلتين وشرب كرضيع فارق الثدي طويلاً.

كان يشبه أبي كثيراً، تذكرت يوم كان ذاهباً وأنا مُتعلق بساقه لأذهب معه، وكرر رفضه وهو يدفعني عنه.

فجأة اشتدت الحمى في عظام الشيخ المتضعضع، وتضاعفت الرعدة مزلزلة جسمه النحيل بهزّات ثقيلة، فانفلتت من بين أسنانه الصغيرة أنّات تشبه أنّات من يُنازع الموت، فسقط جانباً. ناولته خبزة مغمسة في عسل التمر، مضغها ببطء وهي تذوب بين فكيه التعبين بلا نصف أسنان، فتمدد الصمت الطويل في المكان، ثم قطع التنفس البطيء الذي بدأ يتحرك في صدر الشيخ، وطار من صدره أنين أخير، لحقته أصوات عالية من تحت أنقاض البيت الطيني، كانت كأشباح نهضت من سباتها.

لقد أدركنا شهور القتال تلك، مثل ما أدركتها عرب الإقليم، إنها سنة الهلاك، ولحن صنعته أوتار البؤس في نجد تلك السنة، شهور الثأر التي عصفت بنا، وتركتنا لنهاية سيئة، كان ذلك يوم توغل النهار بين بيوت الطين، وفوق السطوح، وكنا بأمر أمير القافلة قد أنخنا غير بعيد من جوّ اليمامة بليالٍ ثلاث، فإذا غِرٌ ما جرب الأمور بعد، يعدو بين الطرقات، يسقط وينهض ماشياً في الطريق المائج، ورائحة الرمل الرطب قد انحشرت في أنفه، وحشرات طائرة تطنّ على وجهه وعند

أذنه، فبدأ عرقه يتصبب من كل مسام جلده، وثيابه تلتصق بجسمه شيئاً فشيئاً.

جاءت به جدته وطلبت من أمير القافلة أن يُردفه مع الرّكب المسافر عند الفجر، وإن بلغنا جوّاً نُنزله وسيستدلُّ إلى بيت من أهله.

التفت الصغير إلى جدته وهي مغادرة كالمتردّدة، ثم انتزع بصره وامتثل لأوامر أمير القافلة والسفر هَرباً من مكروه قد يلحق به، وفجأة انحنت جدته إلى الأرض، وفكّت صُرة قماشيّة حمراء، وقبضت بكفّها البيضاء قبضة من الرّمل، ووضعتها في الصرة وأحكمت إغلاقها، ووضعتها في يده، فسألها:

ـ أهكذا فعل بكم حبكم لنجد؟

ضاحكة:

ـ وما ملاذنا الأبدي؟!

ثم ضربت على وجهها بخمار يكاد يتلاشى ما علق فيه من الحنّاء، وأحنت رأسها، ثم التفت إلى نجد لتراها تذوب في غبش الجفاف، وتُطيل ذئابها العواء وكأنها تودّع مفارقيها، فجاء صوت بطيئاً الأمير آمراً القافلة:

ـ هيّا، علينا أن نباغت ما بقي من النهار قبل أن يدركنا أحد.

فحملنا الصغير على إحدى المطايا مع امرأتين تضمّان إلى حجريهما زكيبتين(٤)، وركبت امرأتان أخريان هودجاً معهما طفلين رضيعين،

وركب أحدهم بغلة بيضاء، وقد علّق على رقبتها صرّته التي حوت أرديته وبعض حاجاته، وركب أمير القافلة فرساً حمراء في المقدمة، حينها رأيت الرجال يعانقون بعضهم والنساء يُودعن الصاحبات في حزن جلي، لقد رحلوا بنا سريعاً، ومن ورائهم ريح صرصر يتعبها ظلام هلامي.

وبعد مسير ليس بالقليل، أناخت القافلة للراحة، لاستعادة القوة في الأبدان، واغتنام وقت جيد للنوم من ذلك الليل، فمدّ كل منها بدنه المُتعب على رمل الأرض، وسحب الغطاء إلى رأسه، وقبل أن يتلألأ ضوء الفجر، ويتداخل ثغاء القطعان ونداء الرعاة، ارتفع صوت أمام القافلة:

ـ السَّير بعد لحظات يا رفاق.

فغاص قلبي في حزني على فراق الدار والأهل، وتحرك الوداع في عميق نفسي هازّاً كل مشاعري حين تحركت القافلة في اندلاق ضوء القمر الباسم، مستقبلاً طلائع أول الخريف، وأنا كل لحظة ألتفت ورائي غاصاً بالدمع الثقيل، وحين تجاوزنا الأودية والهضاب، تهادى إلى أسماعنا غناء جماعي غير مفهوم ولا مسموع بوضوح جاء من بعيد، ثم ذاهباً في آفاق الصحراء.

وما أن غاب الغناء الجماعي، وابتعد في البعيد، حتى ران الصمت في الأفق الواسع، حيث لا صوت الآن غير أخفاف الإبل وهي سائرة، وأنا أقلب عيني في رؤوس بعض الرفاق تتمايل من ضربات النعاس، وانقضاضات التعب المفاجئة.

أبطأنا نسير يقود بعضنا الآخر للمغامرة، كان النهار قد فَرَشَ لظاه على الدروب المؤديّة إلى جوّ اليمامة، لهاث يتمرّغ على شفاهنا، ما برح بعضنا يُسكتونه بقطرات تُرسلُ من فم قربة رماديّة يتناوبها الجميع، ليرتسم الارتياح، ونُكمل السير دون أن نفقد أحداً أو يتعثّر بنا الدرب لمرض أحد، أو إصابة آخر.

في طريقنا مررنا بدارٍ صغيرة خلعت عليها السنين رداء الوحشة، وأماتت في حجراتها سنوات البهجة واللهفة لكل بديع ولطيف، تدحرجت عيناي على جدرانها ذات الشقوق العريضة، وأصغت أذني لصرير مفاصل أبوابها التي تنطق عن غياب أهل وأحبة وخلان، تركوا في ممرّاتها صور أعيادهم، ومشاهد أفراحهم.

استأذنت الأمير، وخفّفت الوطء على الأديم، بعد أن ربطت دّابتي غير بعيد، إلى شجرة ثمام يابسة مائلة قرب الدار، أحكمت عمامتي الصفراء واقتربت كسارقٍ يُخاتل أحدهم، كانت الدار كعجوز ماتت متكئة، دفعت بباطن يمناي الباب الخشبيّ ذي الفتحات الواسعة، وولجت وكأني أطأ محاولاً عدم إصدار أي صوتٍ كي لا يستيقظ نيام

رأوا في النوم هروباً بعد أن هجعتهم الدنيا بفراق أحبة، وليس فراق نجد إلا حسرة تُفتِّت أرواحنا.

وفي قلب الدار لاحت لي جدران طينيّة رُسمت عليها خطوط بدا أنها بفعل أطفال، وفي ركن قريب وجدت منجلاً مُسنداً إلى باب خلاء، دارت عيناي في المكان، وفجأة طار غراب من نافذة قريبة تاركاً لنعيقه صدىً واسعاً في حجرات الدار وسقوفها، فنزّ جلدي بعرق الخوف، ما لبثت أن هدأت، فاعتصرت بيمناي مدلاة الباب، لا أحد، عدا غرابٍ آخر أرعبني حين فرد جناحيه استعداداً للطيران، فأوليت ظهري خارجاً، فخاتلني صوت منادٍ من الداخل:

ـ وامنجداه.

استدرت كسبع فطن لصيّاد مُخاتل، أصغيت أكثر للصوت القادم من عمق الحجرات:

ـ وامنجداه.

هرولت نحوه، فوجدت رجلاً مائلاً على لوح نُصف نصفين غير منفصلين، هزيلٌ طويلٌ، كثّ شعر الرأس، ببشرة حنطية ووشمة بارزة تحت عينه اليمنى، من هيئته أنه لم يتخطّ الثلاثين من عمره، في يده وعاء خالٍ، مائل على يسراه، رأيت هلوساته تتساقط من فمه كلعاب سِكّير، أَمَلْتُهُ على الرمل، فطلب مني بصوتٍ باكٍ:

ـ شُدّني كي أنهض.

أجلسته وجعلته مُستنداً إلى الحائط، وأخرجت من صرتي الرمادية كسرات خبز أسمر انتزعتها من رغيف أحمله، ورفعت يده:

ـ تقاسمها معي.

أشرت له بذلك، بُغية أن يأكل قبل أن يموت وأندم على فشلي في إنقاذه، فنظر إلي كمريض ميؤوس منه:

ـ أسقني.

سريعاً سكبت على فِيه من قربتي وراح يشرب كطائر جريح، ثم تقاسمنا رغيف الخبز، وعلمي أن زادي في نقص مذ مشيت، إلا أن إنقاذ إنسان كان مكسبي من حياتي كلها، ودون أن يتكلم راح يلوك الخبز على مهل، ويشرب الماء كالرضيع، ويبتسم لي ابتسامة الشاكر، ثم مال إلى الأرض وفارق الحياة، مغادراً إلى ملكوت الغياب الأخير.

أشرت إلى الأمير أن نُودِعه حفرته، كأصغر حق له علينا. حفرنا قبره تحت شجرة الثمام اليابسة، وجعلنا شواهده صخرتين صغيرتين، ثم تابعنا مسيرنا.

وحين ابتعدنا التفت إلى قبره ورائي، رأيت ترابه وصغار الحصى مثل أهل يُشيعونني وأعينهم زائغة في بعضها، فتابعت سيري مُدركاً القافلة.

وحين تجاوزنا مقدار نصف يوم، توقفنا عند ماء لنروي منه، ونُترع القِرَب، ونسقي الإبل، حينها رأينا قوماً عند أطراف هضبة قريبة، يتهيؤون للرحيل هرباً من مخالب القتال، إلا أن سوءاً نشب بينهم

ونساءهم، فسمعت لغطاً يتداخل في بعضه، صوت شيخ مضطرب النبرة، فجاذبته واحدة غير قريبة منه:

ـ جعلت ظفيرتي إلى جديلتين، هو ما اعتدته مذ نشأت في نجد، وتدحرجت عيناي على ثوبي الأسود المرقّط دوائر صفراء صغيرة، يهون علي فراق نجد التي أوقدت في أرواحنا النشوة للحياة.

فقالت الأخرى:

ـ لم يكن الفراق هيّناً على أي نجديّ.

وسريعاً أعرضت بسمعي عنهم حين ناداني الرفاق لمساعدتهم في تعليق القِرَب الممتلئة على جُنوب الإبل.

وحين طمس الظلام ملامح الأرض، وقبل دخولنا من بوابة السور لبلدة صغيرة دون جوّ اليمامة بنصف يوم، رأينا الناس الخارجين منها يسيرون وكأنهم على غير هدى، شعر جميع الرفاق بأنهم في حاجة إلى الطعام، بعد أن دبت القرقرة في البطون، فأشار لنا أمير الركب أن ننزل للراحة، فاستجاب الجميع فأنخنا، وعَقَلْنا إبلنا، وأشعل الرفاق ناراً، واستدرنا جلوساً حولها، وصنعنا طعامنا، وحين رفعنا أيدينا من الطعام، لاح خدر في ملامح الجميع، فاتفقنا على لحظة من النعاس تخطفها الأعين أو تخطف الأعين، ثم نُكمل ما جئنا له.

بقيت جالساً إلى جوار الرفاق يناورني النعاس ولا يناورني، وفجأة ارتفع صراخ أحدهم قُرب النار، وراحت أقدامه تركل الأرض، وفمه يرسل

بكاءً مرّاً، فانتفضنا واقفين، ثم احتشدنا عليه لإنقاذه مما ألمّ به، وإذا بدابة غريبة تزحف مبتعدة في ظلام الليل، حينها سقط يشهق شهقات متسارعة، فأيقنا أننا لن نستطيع تخليصه من أنياب الموت، بعدها وقفت بقلب صلب وخاطبت الرفاق:

ـ أُدعوا له، فلا حسرة على هذه الدنيا.

فعزمنا على دفنه عاجلاً، ومن حسن حظنا أننا غير بعيد من مقبرة عتيقة ما برحت تبتلع ما يُدفع إليها من الموتى.

سرنا إلى المقبرة المنبسطة على التل القريب، فإذا بجماعة سبقتنا تدفن ميتها، وأثناء دخولنا بجنازته تفادينا أن ندوس القبور الصغيرة وحجارة شواهد القبور الكبيرة، وجدنا قبراً نصف محفور، اخترناه وقضينا ساعة من الحفر المتواصل للنصف المتبقي حتى إتمام القبر، أودعناه حفرته وعدنا إلى حيث كنا.

استدرنا جلوساً حول نارنا التي على وشك أن تنطفئ، فأخرج أحدهم من أحد جيوبه طرساً بالياً، وقال:

ـ هذه قصيدته قبل مصرعه من لدغة الدابة اللعينة.

ودفعها إلى الذي جانبه، استنكر الجالس جانبه أولاً، ثم سأله هازئاً:

ـ أأبتلعها، أم أنقعها في قدح خمر؟

كان الجلوس تحت ظل الصمت، فطلب منهم:

ـ الحطب كالحديد يستحيل إلى جمرٍ في الأخير.

شقّ الطرس قطعتين ورماهما في النار، والجمع ينظرون وهم يمسحون العرق عن وجوههم من تعب الليلة الطويلة.

وفي صمت الظلام، يبست أصواتنا في حناجرنا، وتجمد الكلام على ألسنتنا، وتوقفت أجفاننا عن الحركة، حين لمعت في القريب أعين ذات بريق حادٍ، وراحت تقترب محيطة بنا على هيئة دائرة استحالت إلى أعين تتكاثر وتزداد حدة بريقها، فإذا بأصوات السعار تتطاير من بين الأنياب الغارقة في لعاب الجوع، فظهرت ذئاب تتدلى ألسنتها على أطراف أفواهها، تتهيأ للانقضاض والظفر بنا.

همس الأمير بالرفاق:

ـ اثبتوا، سُلُّوا خناجركم، وليُحكم الجميع قبضته، ويُسدد ضربته، ولتكن مميتة.

فنادى أحدهم الأمير هامساً:

ـ ولكن خنجري في خرج ناقتي.

أجابه غاضباً:

ـ احمل حجراً وتوارى خلفي وكن معي.

واقتربت الأعين اللامعة، ونحن نتكاثف في نقطة واحدة وخناجرنا دائرة تحطي بنا، والنار تلتهب من ورائنا، ويحمل بعضنا الآخر مشاعل لإخافة الذئاب، وحتى النساء اللاتي في القافلة، نسين أنفسهن واندسسن داخل النقطة الدائرية التي تكاثفنا بها، وهن يرتجفن،

ويدعين، ويندبن، وحين رأت الذئاب صلابتنا حامت حولنا وتفرقت حتى ابتعدت في الظلام، وعلى هضبة قريبة يضيئها القمر، اجتمعت لوقت ثم هبطت إلى الجهة الأخرى.

حينها هدأ الخوف الذي ضرب صدورنا، وجف العرق الذي بلل جلودنا التي انفضت من حجم الخطر الذي خرج من الظلام.

فتململ الجميع و تأهبوا لإكمال الطريق، وبينما نحن مُدلجون تحت الليل الغزير بالعتمة، والصامت كالمُخاتل، والمطر ينهمر رتيباً مُتقطعاً، ترددت أصوات غنائنا بين الكثبان، وتوزعت في بطون الوديان.

جلست والهوان يثقلني، أنظر بحزن إلى الرفاق، وهم صامتون، وكأنهم في مجلس عزاء، وقد ضُرب على أفواههم بالصمت الجامد كجمود الموتى، يحضنون موتهم الذاتي، وهم ينظرون في بعضهم بانكسار لا يخفيه أي منهم عن الآخر، وقد مضينا على هذه الحال ليال قاربت الست، وفي الليلة السابعة، قام أحدهم وأسر في أذن الأمير:

ـ أيها الأمير، لنكمل الطريق إلى جو وليكن ما نكن، ولنلقى ما نلقى.

فجأة بدد حديثه صوت رعد هادر ارتعدت له جنبات الصحراء، ومالت الجذوع اليابسة، تنهدت بحرقة:

ـ يا رب، يا رب، يا رب.

حينها تصبب المطر فوق رؤوسنا غزيراً، تبعه صوت من بعيد يمشي في العتمة:

ـ احملوا بعضكم.

فرد عليه أحد الرفاق:

ـ وأنت إلى أين طريقك؟

لمع البرق ولم نرَ شيئاً في البعيد، فجاء جوابه:

ـ أنا أتفقد إبلي؟

فقال أحد الرفاق ساخراً:

ـ وهل هذا وقت تفقد الإبل؟

أضاء البرق ثانية، فرد عليه بنغمة بطيئة:

ـ لكلٍّ شرعة ومنهاج في حياته.

حينها تناولني أحدهم بين ذراعيه وحذرني من مغبة البقاء هنا إلى الغد، ثم انطلق بكاؤه مرتوياً بخوفه.

دوّى صوت الرعد أكثر في تلك الليلة الماطرة، ولم يقابل دويّه سوى سكون غير مريح يتمطى في كل اتجاه، بينما كانت السماء تغدق على الأرض غزير المطر، حتى ارتفعت الأودية، وتحركت السيول هادرة في كل اتجاه مُتعرج وغير مُتعرج، فتحرك الجزع الثقيل في نفوسنا.

فجأة ارتخى صبرنا، وصاح أحدنا:

ـ واا ويلاه . واا ويلاه.

وتفجر بكاؤه وصراخه حتى كاد يُحرق ما بقي في نفوسنا من صبر، فحاولنا الاحتماء بالدواب، ولم تفلح من الرسوخ في مباركها أمام اندفاع

السيول، والتي دفعتها بعيداً عن مباركها، ورغاؤها يضج مُبتعداً مع جريان السيل.

بقينا حائرين وتلمسنا من بقي منا لنعاود الخروج من السيل والنجاة بأي ثمن، نصارع الماء والظلام، كان الماء قد ابتلع ثلاثة أرباع أبداننا، ونحن بين أنين وصراخ، رحت أنادي فيهم:

ـ من سقط ميتاً فاطلبوا له المغفرة، ومن نجا فلا يجزع من الحياة.

لاح البرق لامعاً كالشمس، فأغمضت عيني، ولُذت بالدعاء:

ـ يااا رب . يااا رب.

راحت عيناي تنظران في الظلام والمطر الغزير، باحثاً عن الناجين من رفاقي، أو أي واحد منهم يُنادي لطلب النجدة، ولم يكن سوى صرخاتهم المتوزعة والرعد الصاخب.

وما أن هدأت العاصفة المطرية بعد وقت طويل، إلا وقد مات كل الرفاق، وقُذفت جثثهم تحت سيولها التي انتزعتهم وإبلهم إلى بطون الأودية.

بعد هدأة المطر، ابتلعت الأرض ماء السماء، وتوقف كل شيء عن الحركة، فبينما كنت أستعيد قواي لأنهض وأتفقد من نجا من رفاقي.

سمعت حفيف العشب الرطب، وهو يخشخش ويقذف ماء المطر بسرعة، ويتقصَّف تحت خطوات تدوسه ببطء وكأنها مُتمهلة، وضعت يدي على خنجري، استعداداً لعارضٍ قد اقترب، والتزمت

الصمت، وأوقفت حركتي، فخطر ببالي أن ألوذ بالفرار لولا انتباهي أني مُتعب مُنهك من مطر البارحة وجريان سيوله، وأن طريق الفرار مُستنقع للغرق، وسيستدل اللاحق علي بسهولة.

ساعتها زحفت حتى اختبأت عكس اتجاه الخطوات التي استمرت تدوس العشب الرطب نحوي، وقلت في نفسي:

ـ الويل لي لو كان القادم صعلوك طريق.

ونادى القادم:

ـ الرَّجَّاس . الرَّجَّاس.

رفعت رأسي كذئب يترقب فرائسه، فإذا به قد اقترب، ودمه ودمعه قد اختلطا، مشجوج الجبهة، ومن عينيه بدا أن قد بكى كثيراً، ثم راح يصرخ لعل أحد يجيره أو ينجده:

ـ هل من أحد هنا؟!

وكأنه ارتعد ثم صرخ ثانية:

ـ هل من مُجير؟!

تلمس رأسه وغطّاه بعمامته المعفّرة بالطين والمطر:

ـ هل من مُنجد؟!

أدركت أني نجوت مما ظننت أنه عارض يقصدني، فصحت به:

ـ هنا . أنا هُنا.

بينما كانت أقدامه تتحرك نحوي، والعشب يتقصّف تحت خطواته المترنّحة البطيئة، وصوت بكائه يسبق نداءه، وسريعاً سقط، فانطلقت راكضاً نحوه، فإذا الحياة قد توقفت في عروقه قبل أن يبرد بكاؤه، ويصمت نداؤه الذي استحال صدى تبدد في الصحراء.

وما أن بلغت حفرة غار ماء السيل فيها، رفعت جثته بين ذراعي وحملته إليها، كان طويلاً إلا أن عظامه دقيقة رقيقة، سجيت الجثة على الأرض، وجرَّدتها من الرداء والحزام وغماد الخنجر ذي المقبض الجلدي والنصل المستقيم، فبانت جثته خفيفة أكثر وكأنها غصن ذاوٍ سقط للتو.

حفرت ما يقارب تسعة أقدام وأحكمت لف الجثة بالرداء الذي جعلته إلى نصفين طويلين، وأكملت عليه لفافة رافقتني أول أمري.

مدّدت الجثة في قاع القبر الطيني، وجلست على رأس الحفرة أتأسف وأتحسر وأسرد حيرتي، حتى بدأ المطر يتتابع إلى أن ردم القبر وأنا أدعو له وأطلب الغفران.

وقبل مغادرتي نظرت إلى القبر نظرات المتردد في الذهاب، وإلى جانب القبر، وتحديداً عند موضع رأسه، جلست خاشعاً، بعد أن غرست غصناً من الشيح على تراب القبر، ورحت أمسح خطوط دمعي الذي انزلق على خديّ، وبعد صمت طويل تلفّت في البعيد قائلاً:

ـ سأترك لك خنجرك بغمده، وحزامك أيضاً.

وألقتيها عند شاهد القبر المركوز مائلاً عند الرأس، وغادرت بخطوات تزحف كخطوات المريض.

كان السيل قد جفّ، بل ابتلعته الأرض، واستوى الطريق إلى جوّ، فهاجت ذكريات رحيلنا الأول، والرفاق الذي قضوا دون أن يخطّ لهم القدر عودة جديدة إلى جوّ.

فسرت حافياً مسير نصف يوم، لا ركوب ولا رفيق، حينها خلعت ثيابي وخضت في ماء عين صدفتها فجأة، وغسلت نفسي، ثم جلست عارياً تحت صخرة تحدها صخرتان عن شمالها وشرقها، وريثما أجفف نفسي وتجف ملابسي الملقاة أعلى الصخرة، تدفق هواء الصحراء مُلطّفاً جلدي الرطب، وأنا أتأمل غزالة صفراء ترعى في القريب وكأن الصحراء لها وحدها، ومن قربها راعية خلف إبلها.

اهدتني الراعية ركوباً صفراء من إبلها العشر، بعد أن أسقتني الماء العذب من جرّة كان قد وضعتها فوق جذع مبتور، وشجعتني أن أحمل نفسي وأعود إلى جوّ.

ظل جسمي في قبضة الارتجاف، فنزعت عمامتي وغطيت بها كتفيّ، وكأن كلاليب نارية تشدني من ظهري، وتُذيب كتفيّ، فغاص رأسي وكأن أحداً هوى عليه بضربة، فمسحت عن وجهي دمعتين ساخنتين.

في طريق العودة إلى جَوّ لم أخف من أي عارض أبداً، فما بقي معي هي قطع فضية قليلة جداً، لا تُغري الصعاليك ولا اللصوص.

وبدأت الظلمة تمحو الجهات وأحاطتني بسوادها، كان جلدي الرطب بعرقي يشعر بالريح التي هبّت ساعتها، وهي تسفّ ما علُق في الرمل من عظام وكسور وبقايا فرائس مزقتها السّباع، وتقذفه مُتدحرجاً، وعلى مدار الظلام البعدي تنثر ذرّات الغبار كدنانير ذهبية.

وفي طريقي شاقّاً السواد الحالك، ظهرت أمامي شجرة ثمام، عملاقة كأنها من السماء، وكأن قوماً من الغابرين غرسوها للتو، ومضوا سريعاً، هي ذاتها شجرة الثمام العملاقة، التي عثرنا على جدي لأبي ميتاً تحتها، حين لم يُمهله الموت ليعيش أكثر، كان هذا قبل سنوات، يوم تباطأنا عودته إلى الحي، بعد خروجه صباحاً لإحضار الحنطة والتمر من بلدة تبعد عنّا مسير نصف صباح، فخرجنا بمشاعلنا الطويلة مبدّدين كثافة الليل آخر الشهر القمري، فطال بنا البحث في كل اتجاه، حتى نفدت القوة في ناحل أجسامنا، فقررنا العودة وإكمال ذلك بعد بزوغ نور الفجر.

وبعد الفجر عاودنا الخروج مُتأبطين أسلحتنا البيض، ومن بعيد لاح سواد ممزّق، كانت مِزَق ردائه قرب الشجرة، يلعب به هواء الصباح الباكر، وحين أدركناه كانت عظامه نديّة بالدم ولعاب الذئاب التي سعّرها سلطان الجوع، وقد خَلَطت كسور عظامه بعد أن افترسته بجنون، فتبيّن لنا أنه ظل الطريق بعد خروجه من البلدة.

كانت تلك السنة الثانية للجدري، يُرافقه الجوع والجفاف، لم تتطلف بنا المحن والفواجع، وأطفال ولدوا في تلك السنة، فتحوا أعينهم على قرقرة البطون، وتصاريف المرض واليباس، غير الخصوم الذين يتربصون بنا وبأرضنا من الجهاتٍ الأربع.

عند بوابة سور جَـوّ، والتي وصلتها ضحى، رفعت رأسي في امتداد السور، ثم نزلت عن ناقتي، ورفعت يدي اليمنى مُودّعاً ما كان ورائي، وناديت الرفاق الموتى بأسمائهم، واحداً واحداً، وجاء ذلك صمتاً، دون أي كلمة، ثم أكملت السير وسط طريق مائلة منحتها شمس الضحى ألقاً خاصاً.

لقد عادت الحياة إلى جوّ وانتعشت حاراتها، وفتحت أبواب حوانيتها ومتاجرها، وانتشرت أصوات الناس ملء الشوارع والأسواق، ودخلت المواشي بأهلها ومن خلفها قوافل مُحمّلة بالطعام والأصواف.

كان بيتنا من أربع حجرات، يتقدّمها فناء واسع تملؤه الأشجار القصيرة، أنخت الركوب في الفناء، وفتحت الباب، ودخلت على حجرات التهمها الغبار وهجران الأهل.

كنت قد دنوت ذلك الضحى من كُوّة في قلب بيتي، رأيتُ النور ينهال منها مُكوّناً بقعة مُنيرة في الحجرة، عثرت على خصلة من شعر غُفران التي مضت بها السنون، خصلة مُلتفّة على رأس خنصري الأيمن، تذكرت أنها حصيلة عبور أصابعي يمناي على غُرّتها في ليلة طواها

الشتاء وحفّها بالمطر، بسطت يدي وتركت خصلتها تتقلّب ببطء على صفحة كفّي اليابسة، وأنا أبتسم ابتسام الوَلِهِ الذي وقع بصره على مواطئ نوقٍ سرت بهوادج خليلته إلى حيث تغيب الشمس، الشمس التي باشرني ضوؤها اللزج على جدران بيتي الصغير، وأنبأني عن خصلتها الشاردة من حرير جديلتها الزكية، لتستقر على رأس إِصْبَعي.

وفجأة بدا ضجيج موكب في الخارج، والذي تجمع عليه أهل جَوّ كلهم، خليط من أصوات تُنادي وأخرى تندب، تجمد الدم في عروقي حين نظرت من نافذتي الصغيرة، فرأيت جثة جاري الأَدْرَد مرميّة على ظهر أتان صفراء، وأهل جَوّ يصقون ويشتمون قاتله، جاري الذي لم يغادر جَوّ من حينه، حتى وصل رجال الحسبة وتسلموا الجثة ليدفنوها على مسؤوليتهم.

كان موته خبرٌ باطنه الرعب، وظاهره الغيلة، قال رهط من الشهود أنه خرج البارحة يحمل عصا الرعي، وكانت البارحة بلا هواء أو ضياء نجم أو قمر، بل لم ينبح فيها كلب أو ترغي فيها ناقة أو تثغي فيها شاة، وحين لم يتمكن من معرفة إبله من بين إبل شاردة اختلطت في بعضها، هاجت حوله أصوات جَلَبة، وقال بعض من شاهده أنهم لم يشعروا إلا وصرخته الطويلة تطوف حتى ارتطمت بأسوار جوّ، وبعدها سَكَن كل شيء في ليلته تلك.

انتهت مشاورات الحسبة أن تُدفن جثته في الخلاء البعيد، حيث لا أحد له في جوّ ليُعزّى فيه، أو حتى ليبكيه، وفي ظهيرة اليوم التالي، سرت خلف جنازته كسيراً أسير أَسَفي، ذابل العظام، مُطَأطَأ الرأس، ونار من الحزن تُحرق قلبي، سأدفن جاري وأعود إلى ركام الذكريات الهائلة التي نثرها العمر في البساتين والحي والطرقات، لقد لازمتني هذه الصورة طوال حياتي.

وخرجت ممكساً بفانوسي، نافضاً ذاكرتي عن كل ما رأيت فيما كان ومضى، وأنخت قامتي باكياً عند وادي نساح(٥) ، وادٍ كبير تتناثر على حدوده المتعرجة الطويلة، وفي بطنه أشجار موسمية كالشيح والثمام والحمض، وأخرى مستديمة كالسلم والسرح والطلح والسدر، فتنمو جميعها مزهوة بنفسها بعد هطول المطر، منتظرة عمرها الطويل القادم في الصحراء.

هناك في قلب الوادي، غرست وجهي في فرجات بين صخور مُتراصة بداية الوادي، وبقيت أذرف دمعاً مالحاً، وأمسح مُخاط أنفي بطرف كمي الطويل، وأتزحزح بطيئاً عن فرجات الصخور، هي ليلتي الأولى بعد غياب شهور عن بلدتي، عاندني النوم فيها وغادر أجفاني، فلم أستبشر بالراحة والنوم الحقيقي إلا يوم بانت لي أسوارها.

وعلى تضاؤل ضوء فانوسي، بقيت أصطاد من ذاكرتي وجوهاً عديدة لقيتها في طريق الذهاب من جوٍّ، وظللت أهجس بها حتى تنفس

الصبح، فَرَغَت الإبل من أماكن مُتباعدة، وثغت شياه يقتادها رعاة خرجوا مع الفجر إلى المرعى، وصاحت الديكة على سطوح متقاربة، وأخرى أوت فوق لحاء خشبي رطب؛ لتطلق من عليه صياحها الطويل. لملمت جسمي النحيل، ونهضت ثقيلاً على يدي اليمنى، فاستقبلتني جوّ بهضابها العريضة، وعيونها العميقة، وأوديتها الواسعة، ونخيلها الشاهق، تماماً كما استقبلتني كلما ضاقت بي الأرض على سعتها

في النهار التالي، مررت ببيوتٍ شرق جوّ، متروكة لغراب البين ينعق على سطوحها، ووطاويط الصمت تنام في شروخ جدرانها، بيوت طينية تحتضر تحت يد العزلة، متأملاً أضواء المشاعل على الأسوار تبتعد شيئاً فشيئاً، وصور رجال ونساء وفتيان وصغار مُبعثرة في الأزقة، ما برحت ذاكرتي تلك الصور الكثيرة.

أذكر ذلك النهار، يوم تجاوزتها عابراً، باحثاً عن مقبرة دُفن فيها أغلب أهلي، وثلة من صحبي، وجمع ليس بالقليل من جيراني، وقلة قليلة جداً ممن عرفتهم في مواطن الرحيل أو مصادفات الدهر.

عبرت أزقة مُلتوية، وبقايا أسوار متهدمة، عجز النسيان أن يُسقط ذكرياتي منها، درت نصف دائرة في الطريق، فقابلني رهط من الفتية، فاغرو الأفواه، شاحبو الملامح، متقابلين على كُتلٍ طينية مرصوصة،

استقبلتني نظراتهم بترقب وذهول، وفي أعينهم ريبة تتكاثف كلما اقتربت، واستغراب خطف وجوههم، هذا ما أتذكره الآن.

وعند المقبرة، كأن نداءً غامضاً يناديني منها، فيه معاني الرحمة، ولطائف السلام، ثم هرشت خدي الأيسر، وعاينت جهاتها الأربع، ومداها الواسع، فلاحت صورتي يوم كنت أركض مع الصِّبية خلف الجنائز السائرين بها من ناحية الوادي تاركين الأشجار عن أيمانهم، إنها قبور ابتعلت الكثيرين، كُن نساء عائلتي أكثر من يزورها، لم تتغير المقبرة كثيراً سوى اتساعها ببعض القبور على الأطراف القريبة من بابها الكبير، قبور كثيرة دون شواهد، عالمٌ ممعنٌ في الغياب الأشد بُعداً، شعرت أن جزءاً كبيرا مني دُفن بين هذي القبور.

طغى علي شعور بالأسف، عبرت في ذاكرتي صورة عمتي التي نهشتها كلاب الحي ذات ليل، وهي عائدة من مجلس عزاء، وصورة والدي يوم قتله جارنا السّكير الأعرج، حين تلاسَنَا أمام باب بيتنا وارتفع صوتاهما ثم اشتبكا بالأيدي، وبعد وقت، حملوه ميتاً وأنا أختلس الفرصة بين الرجال لأُقَبّل جبينه باكياً، وصورة أختي بثينة نهار كنا نرعى المواشي دون وادي نساح، ساعة سقطت منزلقة في مجرى السيل الكبير الهادر، وبعد بحث طويل شاقٍّ عنها، عثرنا عليها ميتة على الطرف القصي من الوادي.

لم أنسَ أيضاً ذلك الفجر، فهو منقوش في وجداني كالوشم القديم، حين كانت أضواء القناديل تلوح تحت قناطر البلدة وأمام أبواب البيوت، حيث تجمعت الكلاب وتكوّرت على نفسها، رأيت جارتنا مسرورة الموتورة خارجة باتجاه الوادي، وما هي مسرورة أبداً، كانت كلما أنجبت مولوداً، بقي يتمرغ في غمرات المرض لأيام ومات، قررت جارتها شقية بنت سحيم أن تذهب إلى ذات الوادي عند الفجر، وتغرف من مائه غمراً وتدعو أن تُرزق بمولود ينعتق من أضراس المرض ليحيا ما بقي له من أيام.

تذكرت ساعة خرجت مسرورة في الفجر التالي، وكأنها تريد اختلاس شيء، وانعطفت إلى وادي نساح نفسه، وبلغته مع اتساع شروق الشمس، بللت أطراف أصابع قدميها ويديها، ثم بسطت كفّيها المرتعشين لتأخذ غمراً منه، فسمعت صوتاً قادماً من عمق الماء، يطلبها للغناء، حينها حلّقت من فوقها طيور خرجت من رؤوس الأشجار وأطراف الهضاب، ثم حلّقت ثانية من فوق مجرى الوادي، ثم عادت إلى الهضاب والأشجار، فصدحت مسرورة بغناء شجي مولع بأطفال قضوا في غمرات المرض، ثم سقطت ميتة.

إنه استذكار أيقظ الفواجع في نفسي، أم أن الفواجع وقود الاستذكار الدائم الذي أرهق ذهني، فناديت النداء الذي اختفى:

- أيها الموتى، أما زلتم نائمين؟

كان ندائي يصعد ويهبط، ويشتدّ ويخفت مع حركة اتجاه الهواء، ولا أحد يجيب، عدا غراب يقف على حافة سور الأيسر للمقبرة، يرفع جناحيه كلما ناديت، جاوبه تعب شديد حلّ في عظامي دفعة واحدة، وانحنيت كما تنحني الذئاب الجريحة. حركت رأسي يميناً وشمالاً، ومِلْتُ برقبتي، وكأن هاجساً عَلِق في صدري، وراح يتسرّب إلى عميق قلبي، فأحسست بثقلٍ يجرّني إلى القاع.

بعدها حملتني نفسي إلى حارات في قلب جوّ، لمع فيها صباي وزهو فتوتي، فرأيتها مهجورة وما كانت قبل مهجورة، وليس في حاراتها ما يدل على وجود بشر مرّ أو نادى بصوته في التواءاتها، أو عابر منحها الحياة بعبوره.

حينها سمعت نداء من جهة غامضة، رحت صوبه على خطوات يحملها الترقب والحذر، وكلما تقدمت ابتعد النداء تجاه جبل فرزان(٦)، حتى وصل سفحه، فاستحال إلى عواء تردد في الأرجاء، وفرّت من خلف الصخور طيور تولول كولولات الثكالى، ثم غابت في السماء البعيدة.

كانت الشمس قد غادرت مستقرها وتراخت خلف جبل فرزان، والليل يقترب كلصٍ عجولٍ مادّاً عباءته على البيوت والطرقات، مُدثّراً البلدة ليقتادها إلى نعاسها، فهرولت إلى عمق الأحياء وطقطقات الحصى تتسارع تحت نعلي، وخلفي يتدحرج الظلام أكثر، فشممت رائحة

أشجار أحواضها ندية بالماء، شعرت بجفاف حلقي ويباس لساني، وكأن جسمي استحال إلى قطعة لحم ضئيلة.

دلفت إلى داخل أحد البيوت، ووقفت تحت سقف في شروخه مُهلة تركها الدهر لدوراته القادمة، جلست على مكعب طيني صغير تحت النافذة ذات الدرفتين الخشبيتين المطعّمتين بالجص الأبيض.

كانت في أرجاء الغرفة آنية مَقلوبة غطّاها الغبار، وأدوات حرث مُتراكمة، وثياب مُعلقة كأنها أسمال، بقربها طاولة مستطيلة عليها قطع من الجلود المُعدّة للتدوين، تصفحتها فإذا هي قصائد أخفى الحبر المُنسكب عليها بعض أجزائها، ورسائل بهتت بعض سطورها، كانت بين حبيبين رَمَزَا لأسميهما رموزاً بحرفين أبجديين، دُونت يسار كل رسالة، وبجوارها صندوق عريض بلا أقفال، تقدمت وفتحته، فأصدر صريراً حاداً، فانبعث منه غبار كثيف، وفُتات خشب تناثر سريعاً، فإذا بداخله غطاء رمادي ثقيل، رفعته فكان ما خشيته أن تخرج من تحته دابة سامة، وكان ما خشيت، فقد خرجت أفعى كأنها عمياء، تتحرك في كل اتجاه دون أن تقصدني، التقطت عكّازاً مُسنداً جوار الصندوق، وحركتها به إلى أن توارت خارج البيت، وما أن أطلّت برأسها خارجة حتى هوى عليها بالحجارة فتية عابرون.

انتبهت للظلام يمدّ أذرعه الطويلة على سطوح البيوت وتعرجات الطرقات المهجورة، وكأنها عباءة ساحرة مجدورة الوجه تُرسل النعاس إلى أعين المسحورين.

رجعت بي الذاكرة فرأيت نفسي ولداً لم يبلغ الثانية عشرة، يجري بين طرقات اليمامة، باتجاه السوق، ثم داخلاً إلى بيت عمي، فرأيتُ خالتي زوجة عمي، خالتي الموتورة كما صار اسمها، تعجن لابنها وابنتيها، رأيتها تَنْزل بجذعها الفتي، فتقفز من صدرها أنّة كأنها تجري مع دمها، وعن يمينها عجنة كبيرة لجيرانها، رأيتها تُغمق في وعاء العجين ذراعها الحنطي البضّ، ثم ترفع العجين وتقلبه على بعضه، تفوح في المكان رائحة الطحين والخميرة والماء الدافئ، رأيت العجين الخارج من بين أصابعها كبشارة للجوعى، فغازلت رائحته أنفي الصغير، وملأت وجهي.

أشارت خالتي بعينيها إلى الأرغفة المغطاة قرب التنور، ورفعت صوتها:

ـ ضع ما يكفيكم في هذا الوعاء.

ثم أشارت إلى وعاء قريب من التنور:

ـ واحذر الاقتراب الكثير من التنور حتى لا يُحرق يدك.

وأكملت تحت غطاء الشمس الدافئة العجن، أعرفها من سنين طويلة، تحب القعود طويلاً حين تبسط الشمس لسانها الأصفر على جلد الأرض، مُكررةً جملتها الشهيرة:

ـ لا يخمر العجين إلا تحت حرارة الشمس.

في ذلك النهار أقبل من عمق الصحراء تاجر حرير أعرج، يُخفي في جعبته رَقّاً أدهماً، نادى في عرب اليمامة:

ـ من منكم يُوصلني الموتورة؟ من منكم يُوصلني الموتورة؟

طوّقه الجمع وقال:

ـ أطلب الموتورة في جيبي حزنٌ ووشاية.

قال له أحدهم:

ـ هي في المنزل الطيني، جِوار ذلك الخباء الأبيض.

قالت خالتي له يوم جاء:

ـ ما شأنك يا هذا؟

فقال:

ـ إني رسولٌ لا أكثر.

قالت:

ـ من يُرسل للموت أصحابه؟

قال:

ـ زوجك، وأنا رسوله.

فسألته في دهشة كبيرة:

ـ أأرسلك إلي؟!

قال:

ـ أرسلني قبل ليال.

ثم ناولها الرقعة، وغادر لا يلوي شيئاً.

نظرت إليها بعينيها الدامعتين، رُقعة سُطِرَت عليها جُملة واحدة:

(لا حظّ لي بالعودة، كونوا أقوياء.)

بعد وصول خبر موته بأيام، ظهرت خالتي فجراً، وجعلت وجهها قُبالة الحائط الطيني، تاركةً يديها مُسدلتين إلى جانبيها، حَفِلت نجد بأطياف حمراء، ذات جلابيب بيضاء، وعمائم بيضاء أيضاً، تضرب على دفوف من الفضة، وتُشير إلى السماء بزهو، ومن خلفها أطياف أخرى، تُمسك بطنابير ذهبيّة، سوّيت على شكل آسر، شُدّت بأوتارٍ خُلطت بألوان الصحراء، راحت تُرسل من أوتارها أرقّ الغناء، وأمتعهُ، وأرفعهُ، وأبدعهُ، وأزهاهُ، وأغناهُ، وأعلاهُ، وبعد تلك اللحظة فركت ظهر يدها مُنيبةً للقضاء، وأذكر في وقت صوته العابر لمدارات روحها، وهي تُناديه بنداءٍ خامل.

وبعد شهور وضعت طفلها الأول، وليد ليال القتال، لم يبكِ مثل الأطفال، جذبت الوشمة الرابضة على خدّه كل من رآه، والتي تشبه حجم الدينار، وبعد أسابيع من ولادته، جاءت الحرب كجمع اللصوص، لقد بَتّكت آذان الأحلام، وَحَطبَت أشجار الأرواح، ودفنا موتانا ليلاً، وصرنا نحاول التملّص منها بالرحيل، يتقدمنا صوت مُتعثر في حنجرة صاحبه:

نجدٌ ما عادت تعرفنا

نجدٌ ما عادت تبغينا.

غادرت صورة خالتي الموتورة عائدة إلى مستقرها في عميق ذاكرتي، فنهضت مُحركاً بصعوبة عظامي الواهنة مُتمسكاً بطرف النافذة، ونظرت منها إلى الخارج، حيث سطح مُنهار على باحة البيت، وكأن أعمدته الطينية الباقية قامات بشرية تُدلج تحت سماء مُمطرة.

وأثناء خروجي من البيت الذي طواه الهجران، ناداني من عميق حارات جوٍّ صوت أجش، يشبه صوت رجلٌ أعرفه من طفولتي:

ـ اِرحل قبل حلول الظلام.

وما أن تسارعت بي خطواتي بعيداً، حتى مَرَقَ فجأة طيف غُفران، تذكرتها، واكتض صدري بالألم، وحاولت الهرب من صورتها المحشورة في ذهني، إذ إنه يصعب علي نسيانها، مع أني لم أعاشرها إلا عامين، كانت أول مرة رأيتها حين كانت ترقص في أحد الأعراس، وتُغني مع المغنية في تمايل بهي حين جذبني قدّها الفارع الفتي، على أغنية تغدق عليها أوصافاً لا تُعد.

كانت تتوسط خدّها شامة، وأسفل مبسمها شامة أخرى، وكلما تذكرتها غرقت أكثر في حيرتي، أحسست يوم رأيتها بمزيج من الشوق والألم، وحين وقعت عينها بعيني، تبدّد حياؤها، وانهالت عليها المغنية بالغناء الصاخب فتعاضدت أطرافها في رقص سحري.

حينها عجزت طرد صورتها من رأسي. احتدم لهب الشوق في نفسي، فكأن كل ما في الوادي من جان وحيوان ودواب قد فطن لي.

فجأة جفّ حلقي، وانعقد لساني حين تذكرت رقصها الموغل في الفحش، وكأن أعضاءها آية الغنى والندم معاً، لمحتها تتكوّر بين الليل وما بقي للفجر القريب، حاملة أحزاني الثقيلة معها، وواضعة على كفّها أحلامي الصغيرة كأرغفة الخبز الباردة.

أخفضت رأسي وغرفت غمراً من الماء وبللت شفتي اليابسة، وتذكرتها يوم أغلقت الباب وأشرعت كل النوافذ التي تطل على الوادي وعلى بستاننا الصغير، حينها دخلت ريح الصباح فاسترسل شعرها البني البهي الطويل، فتنهدتُ، ولواعجي تتدافع، لاحت سريعاً ملامح غُفران، إنها أكبر من الزمن، معجونة بعطر الربيع، تتجلى فَتِيَّة مُنتشية عنقاء. مدّت يدها، ورتّبت كتفي وضغطت بسبابتها اليمنى ضلعي الأيسر. صَمَتُّ طويلاً، أنظر في السكون المريع الممتد على الوادي، جلست قُبالة الماء أتأمله، وبودِّي لو صرخت بصوتٍ عالٍ ليفيض ما بصدري عليها.

أزحت لثامي عن فمي، وتأملت الشجر الكثيف في بطن وادي نساح، صوت الماء الجاري في مجراه عن يميني، وعن يساري كلاب تهوش على بعضها، وكأني سمعتُ من خلفي حركة سريعة من بين الشجر أظنها لوعل نجا من متربص به.

ارتجفت مفاصلي حين مرت صورة غُفران مرة أخرى، لاح لي طيفها كماء السراب، تذكرتها، وامتلأت نفسي بالشجن، فتحينت شعوراً بديلاً إلا أنه لم يتهيأ، إلى هذه اللحظة وصورتها الأولى تُشعّ في ذهني.

وضعت يدي في جيبي، ورحت ماشياً إلى عمق الوادي، أمسح العرق الذي بدأ يتصبّب على عنقي، نزعت عمامتي فلمع جبيني المُتجعد تحت ضوء القمر، حككته، ونفضت رأسي هرباً من صورتها، ومن أثرها الساحر على نفسي، والتفت في كل الجهات لعل بصري يقع على ما يُشغله بغيرها، أذكرها جيداً، وأشم رائحة عرقها الفاتر بعطر الشّيح، وأطرافها اللينة وكأنها في دوامة من الخوف، شممت رائحتها الزكية، فتسرب في عظامي خَدَرٌ لذيذ، كان ذلك يحصل في كل مرة أتذكرها.

تُذَكِّرُني ملامح غُفران كثيراً بسُلَيْمَى، سُلَيْمَى التي أحببتها في عامٍ من أعوام تجارة أبي، حين كان يُعامل قوافل تجارة أبيها، أيام شهرة خيمتهم التي نُصبت في سوق جوّ اليمامة. سُلَيْمَى التي تركتني أَرْمَلاً لسنوات، والتي في آخر حياتها رَجعتُ إلى بيتها، ففَرِحَت فرحاً حاراً يوم رأتني عازماً إكمال بقية أيامي معها، كانت تربط جديلتها ذات السواد الكثيف، وفي عينيها يلمع حزنها القديم، بعد أن سَرَق الفقد بعض جمالها، إلا أنه لم يسرق أملها في عودتي، كان قلبي قد دلّني

عليها، إلا أن العودة كانت لقاء مرضها، مريضة لا يُرجى برؤها، رأسها غائرة بين كتفين مائلين، ووجه أصفر بنظرات تعبة وملامح مُجهدة.

تذكرت أيامها الأخيرة تلك، أقمت عندها مطروحة على فراش بالٍ تحت النافذة، تنظر إلى ذكريات ابنتنا الوحيدة التي اختارها الله وهي رضيعة، صرتُ جليس البيت، ونادراً ما أخرج إلى السوق بين حينٍ وآخر، كأن طاقة جسمي قد تلاشت تماماً، ولم أعد ذاك الغاضب الذي يتعارك مع كل أحد، أرجع إلى البيت وقت المساء، فتراني سُلَيْمَى قادماً، فتُخدّرتني بقُبلة خاطفة، ثم تُدَمدم:

ـ عادتك هذه لا تعجبني.

تلاشى المشهد من أمامي الآن، وقد ضجّ رأسي أكثر، أفكار غير مريحة تطاردني، فأتعوّذ وأتململ، ثم أهرش جبيني، فلفت بصري اشتداد ضوء القمر، الذي كشف لي ظلاً غير بعيد، يبدو كظلّ رجلٍ يحمل على ذراعيه وليداً، هذا ما رأيته فعلاً، إلا أنه اختفى سريعاً، ثم خرج من جهة أخرى يحمل الوليد بين ذراعيه ويبكي ويرتجف، ثم اختفى سريعاً.

رفعت رأسي فرأيت القمر ينثر فضّته على النخيل والسطوح والأودية، وأنا أتأمل السماء فوق تلة تُشرف على أخدودٍ عريض، وأقول لنفسي:

ـ انظر.

وراقبت جمال الحياة في هذه اللحظة، وكأن الليل ارتفعت حيطانه، وعواء بعيد يُسمع في الظلام الساكن، حينها هبّت رائحة طيبة، فقلت:

ـ ما هذه الليلة؟

تذكرت طفولتي في ضجة الليل، ونسوة يتحركن بين المشاعل، ليُحيين الليل بالغناء والرقص والزغاريد، ويغرفن لذيذ الطعام من رفيع القدور، ويسكبن الماء العذب من فخارات أنيقة، وزغاريد متواصلة حول طريق من فوقها سلال معقلة بالبكرات، وزغاريد تتطاير من كل اتجاه، وطناجر من حولها مغارف ترفع الشراب الساخن إلى طاسات كثيرة، إنه عُرس محفوف كما يبدو، رأيت نسوة بوجوه كأنهن نصف نائمات، وأهداب سوداء ندية طويلة، وجدائل ممشطة لامعة فاحمة السواد، ووجوه بحمرة خفيفة. يُحيط بذلك كله أحاديث غامضة من وراء الأبواب.

في تلك الغمرات البعيدة، غلبتني رغبة كبيرة في الغناء، فخطرت علي أشعار كانت تتردد على حنجرة جدي لأبي الذي أخذت عنه طرائق الغناء في سعة الصحراء، فغنّيت طَرِبَاً، والهواء يستدير من الجهات كلها، مُتدرجاً في حال من النشوة الغائمة، فاتحاً باباً جديداً على الحياة.

ومضى لساني يُردد طَرِبَاً، والهواء يستدير من كل الجهات، وصوتي الشجي يتردد على هيئة جماعة يُرددون ورائي، مُتدرجاً في حال من النشوة الغائمة:

فَـتَىً لَـو يُنَـادِي الشَّـمْسَ أَلْقَـتْ قِنَاعَهَـا
أَو القَمَـرَ السَّـارِي لَأَلْقَـى الـمَقَالِدَا
وَيُصْـبِحُ كَالسَّـيْفِ الصَّـقِيلِ إِذَا غَـدَا
عَلَـى ظَهْـرِ أَنْـمَاطٍ لَـهُ وَوَسَـائِدَا
يَـرَى البُخْـلَ مُـرَّاً والعَطَـاءَ كَأَنْـمَا
يَلَـذُّ بِـهِ عَـذْبَاً مِـنَ الـمَاءِ بَارِدَا(٧).

والسّلامُ لِأهلِ السَّلام.

تمّت رسالة الرَّجَّاس اليمامي

ببلدة جوّ اليمامة، أحاطها الله بحفظه

3 - [ذيل وتعليق]

ضحى يوم الجُبار(٨)، مطلع الشهر الرابع من العام الثامن الهجري، تُوفي الرَّجَّاس اليمامي مُتَرَدِّياً من بعيره الأوضح، أثناء عودته من البحرين، وهو ذات العام الذي تُوفي فيه هَوْذَة بن علي الحنفي.

4 - [إيضاحات]

(١) **هَوْذَةُ بن علي الحنفي**، (ت: ٨ هـ) من ملوك اليمامة في نجد، وأول من لبس التّاج عند العرب، شاعر بني حنيفة وخطيبهم، كان يسكن مع قومه جَوّ اليمامة - مدينة السّيح حالياً - وقد كَتَبَ النبي صلى الله عليه وسلم إليه يدعوه إلى الإسلام كما كَتَبَ إلى الملوك.

(٢) **جَوّ اليمامة**: مواطن قبيلة جديس وزرقاء اليمامة في نجد (مدينة السيّح حالياً).

(٣) **سُوقُ الخِضْرِمَة**: بكسر الخاء والراء، يقع في جَوّ اليمامة.

(٤) **الزكيبة**: كيس من الخيش.

(٥) **وادي نساح**: هو وادٍ باليمامة، وقال السكري: نِساح اسم جبل، ويوم نِساح: من أيام العرب مشهور.

(٦) **فـرزان**: منطقة زراعية بـ (الخَرْج)، تضاف إليها عين كانت تقبل من غربي (الخَرْج)، مما يلي أسفل (وادي نسَاح)، من جبل (منقاد آدم) يشرف على غربي الخرج، ومفيض (وادي نسَاح) فيه .. مما أرجح أن يكون هو (الآدَمَى) التي يعناها جرير في شعره:

يا حبّذا الخرج بين الدّام والآدَمَى

فالرّمث من برقة الرّوحانِ فالغرفِ.

(٧) أبيات للأعشى في مدح ذي التّاج.

(٨) **يوم الجُبار**: هو ثالث أيام الأسبوع (الثلاثاء) ويُسمى في الجاهلية بالجُبار.

فِهْرس الرِّسالة

إهـــداء (٥)

1 ـ [مدخل] (٧)

2 ـ [رسالة الرَّجَّاس اليمامي] (٩)

3 ـ [ذيل وتعليق] (٧٧)

4 ـ [إيضاحات] (٧٨)

«وسط هذا المشهد، حفر الكاتب العربي السعودي ماجد سليمان، سطور ورقه وقَبِل بالتحدي وترك شهوة الحبر تتريث ريثما يهيئ الفكرة التي ينطلق منها».

أحمد المؤذن

«إنه عمل يضج بالإبداع، ويمنح لكل قارئ تجربة تأملية فريدة، تعيد تشكيل حدود الخيال والواقع».

براك البلوي

« . . محافظاً على بصمته الخاصة التي لا تُخطئها العين، ولا يغفلها القارئ المُحب للكلمة الصادقة والنص المتقن».

حمد المالك

«إنه صوت نقيّ بين الضجيج، ومشروع أدبي يُبنى على الوعي، والصدق، والتجريب الشجاع».

منصة أدب ماب

ماجد سليمان، أديب سعودي

تَنَوَّعَ أدبهُ بين الشِّعر والقصَّة والرِّواية والمسرحيَّة، وكُتب حول أعماله عدد من الأطروحات العلميَّة والدراسات النقديَّة في جامعات محلية وعربية وعالمية، وتُرجِمَت بعض نصوصه إلى لغات منها البوسنيّة والأوردية.

رقم الإيداع ١٤٩٤ / ١٤٤٧
ردمك ١ ـ ٩٧٧٤ ـ ٠٥ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

تصميم الغلاف: ماجد سليمان